لواحق المقتطف الشهرية

سجل الخالدين

لورد كليف

مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند

تأليف

ماكولي

نقله بتصرّف الى العربية

عبد المنعم صادق

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

نشأة كليف

في القرن الثاني عشر هبطت أسرة كليف مقاطعة شروبشير واقتنت مزرعة قريبة من «ماركيت دريتون». وظلت تعيش على ما تغله من إيراد . . . وفي خلال حكم الملك جورج الأول آلت هذه المزرعة الى ستر ريتشارد كليف الذي لم يكن يتميز من أي رجل عادي بأية موهبة أو كفاءة، ولكنه أصبح من رجال القانون. وكان وقته موزعاً بين واجباته كقانوني والتزاماته كزارع يشرف على مزرعته . وتزوج في مانشستر من سيدة من أسرة هاسكيل . أنجبت له عدة أبناء كان أكبرهم روبرت كليف مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند، وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٧٢٥ .

ودرج الطفل من مهده وبدأت تتجلى فيه تلك الصفات التي صحبته في صباه وشبابه ولازمته في رجولته وكان أبلغها ظهوراً قوة إرادته وحدة عاطفته وشجاعته التي لا حدّ لها والتي كان يصحبها أحياناً تهوّر واندفاع مما دعا الناس الى أتهامه بالجنون . ولقد حكي عنه بيلي كليف إنه كان مولعاً أشد الولع بالمقاتلة فكان يغضب ويتشاجر لأتفه الأسباب . ولقد كان أهل القرية يذكرون تلك العصابات التي كان يكوّنها في صغره من زملائه في الطفولة ويفرض على أرباب الحوانيت إتاوة ليضمن لهم سلامة واجهات محالهم . وسببت هذه الصفات لأهله كثيراً من المتاعب فأخذوا ينقلونه من مدرسة الى أخرى دون أن يحصل على أي قدر من العلوم بل يزداد شهرة في الاعتداء على الناس باليد واللسان . ومع هذا فقد تنبأ له أحد أساتذته وهو الدكتور إيدرن بأنه « لو عاش هذا التلميذ حتى صار رجلاً وتهيأت له الظروف المساعدة، فانه سيكون رجلاً عظيماً ». ولكن الاعتقاد العام في روبرت كان . « أنه غبي شرّير » وكانت عائلته لا ترجو منه خيراً ، فلم يكن غريباً منها حين بلغ الثامنة عشرة من عمره أن توافق على تعيينه كاتباً في خدمة شركة الهند الشرقية . وودعه ذووه على ظهر السفينة

التي حملته إلى فرع الشركة في مدراس وكانوا يرجون له الثراء أو الموت .

وكانت شركة الهند الشرقية شركة تجارية محضاً وتشغل بضعة أميال مربعة في بلاد الهند تدفع عنها إيجاراً سنوياً للحكومات الوطنية . وكان لها فصائل من الجند قليلة العدد لا تكاد تكفي للاشراف على ثلاث أو أربع قلاع متتابعة مقامة لحماية مستودعات الشركة . ولم يكن هؤلاء الجنود ومعظمهم من الوطنيين الهنود قد تدربوا على النظم العسكرية الاوروبية وكان سلاحهم السيف والدرع أو القوس والنشاب . وكانت مهمة موظفي الشركة تنحصر في ورود البضائع أو دفع عرابين لعملاء الشركة من التجار أو الاشراف على شحن السفن . هذا الى مراقبة حركات التجار الذين يجرؤون على مزاحمة الشركة . وكان صغار الموظفين مضطرين الى الإستدانة لضآلة مرتباتهم ، أما كبارهم فكانوا يشتغلون لحسابهم الخاص فأصبحوا على شيء من الثراء . أما أولئك الذين كانوا في الوظائف الرئيسية فقد تيسر لهم جمع ثروات طيبة .

أما فرع الشركة في مدراس حيث عين روبرت كليف ، فكان أهم فروعها حيث قلعة سان جورج التي أنشئت في سنة ١٦٤٠ في مكان قاحل تضرب عليه دائماً أمواج المحيط الصاخبة . وكان على مقربة منها ثلاث قرى كل منها في شمال الأخرى وتكون في مجموعها مدينة مدراس ، فأولاها المدينة البيضاء حيث يقيم ثلثمائة انجليزي وبضعة أوربيين آخرين و « المدينة السوداء » حيث تجار الأرمن والهنود وثالثتها قرية يقيم بها الوطنيون الفقراء . وكان عددهم آخذاً في الازدياد .

وفي داخل القلعة وما جاورها كان للانجليز من الحقوق ما كان لأي مالك هندي آخر في ممتلكاته ولكنهم لم يطمعوا يوماً في الاستقلال بهذه البقعة من الأرض التي كانت تابعة لأقاليم الكرنات الذي كان عليه « نواب » ينوب في حكمه عن « نظام » الحاكم الذي كان يستمد سلطانه من المغل العظيم سليل جانكيز خان والمتربع على عرش دلهي .

الى الهند

وكانت رحلة كليف مجهدة له ولا سيما في تلك السن المبكرة . وقد رست السفينة خلال تلك الرحلة على ميناء ريو دي جانيرو حيث ظلت تسعة أشهر واستطاع المغامر الشاب أن يتعلم

الكثير من البرتغاليين في إقليم البرازيل . وكان طول اقامته فيها سبباً في أن يأتي على ما كان معه من نقود وان يقترض من ربان السفينة وبلغت السفينة مدراس بعد أكثر من عام . وكان كليف مقلاً ومرتبه ضئيلاً إذ لم يكن يتعدى خمسة جنيهات في الشهر . واضطر الى الاستدانة . وكان مقامه في مكان لا يصلح لسكن أوروبي في ذلك الجو الحار وكان حين وصوله يحمل خطاب توصية لرجل كان من المحتمل أن يجد فيه عوناً له ، ولكنه لم يجد الرجل إذ كان قد سافر الى انجلترا قبل مقدمه . ومنع كليف حياؤه ثم كبرياؤه من أن يتقدم الى من لا يعرفهم وهكذا قضى في بلاد الهند بضعة أشهر قبل أن يتعرف الى غيره أو الى أسرة واحدة . وأثر المناخ وسوء الاقامة في صحة الفتى ونفسه إذ لم يكن ما يؤديه من عمل يتفق مع نشاطه وجرأته فأحس بحنين الى وطنه واشتد حنينه اليه فكتب الى صديق له في انجلترا يقول « لم أقض يوماً منذ غادرت أرض الوطن أني سعيد وان الحزن والأسى ليعترياني حين أفكر في انجلترا وكم أكون سعيداً عند ما تتاح لي فرصة زيارتها لا سيما ما نشتمل محط آمالي » .

ووجد شيئاً من الراحة حينما كان يسمح له وكيل الشركة بزيارة مكتبته وصار يقضي بين جدرانها أوقات فراغه وأقبل على الاطلاع على ما حوته الكتب التي وصلت الى يده .

ولكن لا المناخ السيء ولا الفقر القاسي ولا الدرس والاطلاع ولا مرارة النفي ، قد هذبت من نفسه المتمردة فكان موقفه من رؤسائه دائماً هو موقفه من أساتذته في المدرسة حتى كاد يفصل من عمله يوماً ما واشتد به اليأس مرتين فحاول الانتحار في كليهما ولكن الرصاص لم ينطلق من مسدسه في واحدة منهما ، فانقلب يأسه أملاً واعتقد أن الأيام تدخره لعمل عظيم .

الضابط كليف

وكانت انجلترا في حالة حرب مع فرنسا في أوربا وكان طبيعياً أن تكون الحال كذلك في بلاد الهند ، فقد هاجم لابوردونيه حاكم موريشيوس الانجليز في مدراس واستولى على قلعة سانت جورج وعلى المدينة ورفرفت الأعلام الفرنسية على القلعة واتفق مع الانجليز

على أن يعتبروا أنفسهم أسرى حرب وتعهد بأن تبقى المدينة في يد الفرنسيين حتى تدفع لهم التعويضات اللازمة فيرحلوا عنها .

ولكن انتصار لابوردونيه أثار غيرة مواطنه دوبليه حاكم بندشيري فأعلن أن لابوردونيه قد تجاوز حدود سلطته في عقد هذه المعاهدة وأن جميع المفتوحات التي تتم في بلاد الهند تحت الراية الفرنسية انما تكون خاضعة لحاكم بندشيري وحده . وبهذه النظرية ضم مدراس اليه وساق كبار موظفي الشركة الى بندشيري وسيرهم في شوارعها باحتفال كبير شهده خمسون ألفاً من المشاهدين . واستطاع كليف أن يهرب من الأسر ليلاً فأوى الى قلعة سان دافيد وكانت احدى القلاع التابعة لمدراس ولم تسقط بعد في يد الفرنسيين .

وهكذا تهيأت لكليف الظروف التي تتناسب مع صفاته ومميزاته وطلب من أولي الأمر في سان دافيد أن يعينوه ضابطاً في القوات البريطانية وأجيب الى طلبه . وكانت سنه وقتذاك احدى وعشرين عاماً . وحدث أن اشتبك في عراك مع أحد جنود الفرقة التي كان بها وكان هذا الجندي مشهوراً بالقوة البدنية الهائلة وكان مصدر ذعر الفرقة كلها وانتصر عليه فزاد قدره عند زملائه والتفوا حوله وبدأت الأنظار تتجه اليه لما امتاز به من الشجاعة والعدل والحكمة والاخلاص في طاعة الأوامر، وبدأ نجمه في الصعود في أثناء المعارك المحلية التي كانت تدور بين الانجليز والفرنسيين حتى استرعى بأعماله نظر قائده الميجور لورنس.

وعقد الصلح بين انجلترا وفرنسا فعادت مدراس الى الانجليز وبهذا عاد الضابط الشاب الى الحياة المدنية ثم تركها الى الزي العسكري ولم يمكث به غير قليل حتى عاد الى وظيفته الكتابية . وبينما كان في تنقلاته هذه بين الحياتين العسكرية والمدنية حدث ما حدد مصيره واتجاهه. ذلك ان الحرب وإن وضعت أوزارها في أوربا إلا أنها قد شبت أوارها في الهند بين الشركتين الانجليزية والفرنسية اللتين كانتا تتنازعان للحصول على أملاك تيمورلنك في الهند.

ولقد كانت الامبراطورية التي أسسها المغول في القرن السادس عشر من أوسع وأعظم الامبراطوريات التي نشأت في التاريخ حتى ذلك الحين ، من حيث عدد السكان أو مقدار الثراء أو مظاهر الترف والنعيم . إلا أن سياسة الحكم في تلك الامبراطورية حتى في أوج مجدها كانت سيئة جداً وذلك لأن نظام الحكم المطلق هو الذي كان سائداً فيها وما نشأ من

حكم التتار وهم أقلية لشعب كبير العدد من أجناس متباينة ومن وجود خلافات قامت بين قبائل الهندوس . ولكن هذه الاحداث لم تؤثر في مظهر الدولة الخارجي فبدت عظيمة متماسكة وان كانت قد هدت من كيانها الداخلي . وظلت على هذا الوضع حتى أواخر حكم أورنجزيب في سنة ١٧٠٧ وبموته إنهارت الدولة كأنها بيت من الورق.

فقد تولى الحكم بعد هذا الامبراطور في خلال أربعين عاماً، ملوك قنعوا بأن يكون لهم الملك بالاسم والاقامة في قصور تهيأت لهم فيها كل وسائل النعيم والترف والخمول والدعة والخمر والحشيش والنساء وأهازيج الأوتار ، وذلك في وقت كان المغيرون فيه ينتقصون الدولة من أطرافها ويلتهمون ثرواتها، فهبط نادر شاه ملك فارس في ١٧٣٩ سهول الاندوس في الشمال الغربي من بلاد الهند واقتحم أبواب دلهي وحمل منها كنوزها إلى بلاده وأعقبته قبائل الأفغان والجيوتانا ثم قبائل المهراتا . وكانت أشد القبائل المغيرة وحشية وقسوة وأصبحت مصدر رعب دائم للهنود . فما كان يسمع الفلاح صوت قرع طبولهم حتى يحمل ما يتيسر له حمله من متاع ويهرب الى الجبال أو الغابات حيث يجد في مجاورة السباع أمناً لا يجده في مجاورة الذين كانوا يفرضون الجزية على الولايات والتجار الأوربيين ، بل إن الامبراطور نفسه كان يدفع لهم مايفرضونه عليه صاغراً وهو يرى من نوافذ قصره في دلهي ، نيرانهم فوق قمم الجبال القريبة .

***

وتقاسمت القبائل المغيرة أملاك الامبراطور ونشأت فيها دويلات صغيرة في طول البلاد وعرضها ، كانت لا تلبث أن تضعف وأن يسترد السلطان فيها نواب ينصبون أنفسهم حكاماً تابعين إسمًا للامبراطور الضعيف يرسلون له الهدايا الفاخرة دليلاً على تلك التبعية التي تكسبهم صفة شرعية لحكم البلاد التي يحكمونها وكانوا فيها اصحاب السلطة الحقيقية لا يمكن عزلهم أو نقلهم إلى جهات أخرى وكان هؤلاء النواب مسلمين، فكونوا أسراً اسلامية تولت الحكم في اقليمي البنغال والكرنات .

دوبليه

ورأى دوبليه وكيل شركة الهند الفرنسية هذه الفوضى الضاربة أطنابها في بلاد الهند، ورأى بثاقب فكره المتوقد وقوة ذهنه الجبار، انه يمكنه أن يستفيد من هذه الفوضى الشاملة فيؤسس على أنقاضها امبراطورية فرنسية تضم تحت لوائها المسلمين والهندوس على السواء والجنود الوطنيين وقبائل المغيرين معاً وان يؤلف من تلك الشعوب المتباينة في الجنس واللغة والدين والعادات شعباً واحداً يدين بالولاء لفرنسا. ولم يقنع دوبليه بتحديد الغاية بل رسم الخطة التي توصله الى تحقيق هذه الغاية، وذلك في وقت كان فيه أقدر موظفي الشركة الانجليزية لا يشتغلون إلاّ بأعداد الفواتير وجرد المخازن والاشراف على الشحن ومراقبة التجار المحليين.

وكان دوبليه يرى أن ما يمكن لأي أمير هندي جمعه من جند لا يستطيع أن يقف — مهما كان عدد جنوده من الكثرة — في مواجهة قوة صغيرة من الجنود النظاميين والمدربين على النظم الاوربية، وانه من الميسور تدريب الجنود الوطنيين على النظم الحربية الحديثة فيصبحون قوة عظيمة، وان الطريقة المثلى للمغامر الاوربي هي مراقبة الحوادث والاستفادة من تطوراتها وان يتخذ من الخلافات التي تنشأ بين الأمراء سبيلاً للتدخل بينهم واتخاذ بعضهم ستاراً يعمل من ورائه على تحقيق غايته — هذه هي السبل التي رسمها دوبليه وسار فيها الانجليز فيما بعد.

ولقد حدث أن توفي « نظام » الدكن في عام ١٧٤٨ وورث ملكه إبنه ناصر جنج وكانت « الكرنات » أغنى المقاطعات التابعة له يتولى الحكم فيها « نواب » أنوار الدين منذ عام ١٧٤٠ وكان طبيعيًّا في تلك الفوضى الشاملة أن يظهر أمراء طموحون يطالبون بالعرش، وأن يجدوا العون في أولئك الوصوليين الذين يهبون مع كل ريح طمعاً في المغانم والأسلاب، فظهر مطالب بعرش الكرنات وكان إسمه شندا صاحب، ومطالب آخر بعرش الدكن وإسمه ميرزا فاجنج الذي كان حفيداً للنظام الراحل. واتحد هذان المطالبان وانضم تحت لوائهما الكثيرون ولم يكتفيا بذلك، بل طلبا من الفرنسيين شد أزرهم في هذه المطالبة. ووجد

الفرنسيون الفرصة سانحة لتحقيق أغراضهم ونيل مآربهم فأمدوها بقواتهم وانضاف المتنافسان الى هذا المدد كل الانضمام ، لاسيما وقد رأيا الفرنسيين يتقدمون على الانجليز في ساحل « كروماندل » .

وتقرر أن يبدأ بغزو مقاطعة الكرنات فسارت الحملة وقد زاد في قوتها ما أمدها به الفرنسيون من قوات يبلغ عدد أفرادها أربعمائة جندي فرنسي وألفي جندي هندي مدرب على النظم الأوروبية . وكان طبيعياً أن ينتصر الحلفاء على قوات « نواب » الكرنات وأن يظفروا به ويقتلوه وأن يهرب إبنه محمد علي الذي لجأ الى « تريشنوبولي » وأن تم بهذا سيادة الغزاة على مقاطعة الكرنات . فنصب شندا صاحب نواباً عليها . وكان دوبليه الساعد الاول في هذا التنصيب فأصبح صاحب النفوذ الاول فيها والحاكم الحقيقي لتلك المقاطعة .

وبعد بضعة أشهر قضاها الحلفاء في حروب ومفاوضات ومؤامرات برزت فيها كفاءة دوبليه وساعده حسن حظه فأصبح صاحب الامر والنهي في إقليم الدكن كله، ذلك أن ناصر جنج قتله أتباعه وتولى مكانه ميرزافا جنج، وبهذا انتصرت السياسة الفرنسية في ذلك الجزء من بلاد الهند وأقيمت حفلات التتويج الرائعة في مدينة بوندتشيري حيث أطلقت المدافع ودقت أجراس الكنائس وبعد أن تمّ تتويج ميرزافا « نظاماً » لاقليم الدكن أعلن هذا تعيين شندا صاحب « نواباً » لمقاطعة الكرنات و « دوبليه » حاكماً على ذلك الجزء من بلاد الهند الذي يقع بين راس كومورين ونهر كريستنا والذي يبلغ عدد سكانه ثلاثين مليون نفساً ومنحه من الامتيازات ما فاقت به امتيازات شندا صاحب ، فقد عين رئيساً لسبعة آلاف فارس وجعل سك النقود قاصراً على بوندتشيري ، واستولى على جميع خزائن المال والنفائس التي كان أمراء الدكن قد جمعوها طيلة حياتهم . وقد تواترت الأنباء عن قدر ذلك المال الذي انساب الى خزائن دوبليه ومنها ما يحدد قدره بمائتي الف جنيه . وفي الواقع لا يمكن تحديد ما جناه الحاكم الفرنسي من وراء تلك الحملة فضلاً عن انه أصبح الحاكم المطلق على ثلاثين مليون نفس إلى نفوذه الكبير في الاقليم كله فان أمراً ما كان يبت فيه قبل استشارته .

ولم يبق ميرزافا جنج في مركزه العظيم سوى أشهر قلائل . ثم تولى مكانه أمير آخر من نفس الأسرة مستنداً الى نفوذ الفرنسيين فوافق على جميع الامتيازات التي منحها لهم سلفه

وأصبح اسم دوبليه يأتي الرعب في النفوس حتى في قصر الامبراطور في دلهي . وكان الأهالي يعجبون كيف أصبح لهذا المغامر الأوروبي أن يحرز كل هذا التوفيق في مدة لا تزيد على أربعة أعوام . ولم يكتف دوبليه بهذا النصر ، بل استولى عليه الغرور فشاء أن يرسخ في أذهان الهنود والانجليز على السواء ما قد ثبته بعيداً عن تلك الأذهان من قوة مركزه واتساع سلطانه ، فأمر بإقامة مسلة في نفس المكان الذي سقط على مقربة منه ناصر جنج وعين ميرزافا جنج وأن يكتب على هذه المسلة أنباء انتصاراته وأن يكتب كل وجه من وجوه المسلة الاربعة بلغة غير التي يكتب بها الوجه الآخر حتى يعلم الشرق كله من هو دوبليه وما هي فرنسا . وحول هذه المسلة أنشئت مدينة دوبليه الفاتح .

وقام الانجليز بمحاولات ضعيفة لوقف تقدم الشركة المنافسة وظلت تعترف بمحمد علي كنواب لمقاطعة الكرنات رغم أن هذا الأمير لم يكن له سوى قرية تريشنوبولي ، وحتى هذه القرية أصبحت الآن محاصرة يقف على أسوارها شندا صاحب وأعوانه الفرنسيون . وكان لا بدّ من رفع هذا الحصار ولكن هذا الأمر بدا مستحيلاً ، فقيادة الانجليز في مدراس كانت بدون قائد لأن الميجور لورانس عاد الى انجلترا ولم يكن هناك ضابط واحد يمكن الاعتماد عليه . وكان الهنود يرون أن الفرنسيين هم سادة المستقبل فقد رأوهم يوم استولوا على قلعة سان جورج وشهدوا الأعلام الفرنسية ترفرف عليها ورأوا كبار موظفي الشركة الانجليزية مسوقين في ركاب المنتصرين في شوارع بوندتشيري ، ولمسوا انتصار جيوش دوبليه في كل مكان حلت به ورأوه صاحب الأمر في الاقليم كله بينما لم يروا من الانجليز إلا الضعف . في تلك اللحظة ظهر شاب انجليزي مغمور تجلت فيه الشجاعة والقدرة فتغير مجرى الأمور .

اركوت

كان كليف في تلك الأثناء قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وبعد أن قضى فترة طويلة في تلك الأثناء بين حياتيه العسكرية والمدنية ، عين بصفة دائمة في وظيفة تجمع بين الناحيتين وهي وظيفة ضابط تموين فصائل الجند برتبة كابتن . واستطاع هذا الضابط الشاب أن يقنع

ولاة الأمر في مدراس بأنه من الواجب أن يبذل جهود لإنقاذ تريشنوبولي ، وإلا فإن تلك القرية ستسقط في أيدي الفرنسيين وتقتل محمد علي وتنهي أسرة أنوار الدين وتتم بهذا سيطرة الفرنسيين توصية جنوب الهند كلها . وأنه لا بدّ من القيام بغزوة كبيرة . فمثلاً اذا وجهت هذه الغزوة الى أركوت عاصمة الكرنات التي ينحدر القائم فيها حكام الكرنات ، فليس من المستبعد في هذه الحالة أن يرفع الحصار عن تريشنوبولي . ورأى رؤساء كليف أن فكرته وجيهة تستحق التنفيذ ، لأنهم كانوا يخشون أن يجيء يوم تعلن فيه الحرب بين فرنسا وانجلترا في أوروبا وتصل الى الهند فتهجم قوات فرنسا الموجودة ببلاد الهند على أملاك الشركة الانجليزية في مدراس وتدمر المدينة نهائياً ، وتبعاً لذلك وافقوا كلية على ما ذهب إليه دون تردد في أمر تنفيذ الفكرة وجعلوا تحت إمرته مائتي جندي انجليزي وثلثمائة جندي هندي مدربين تدريباً أوروبياً . ولم يكن بين ضباط هذه الحملة سوى إثنين شهدا الحرب وعرفا ما هي . وسارت الحملة في جوّ عاصف مطير حتى بلغت أبواب أركوت فذعرت الحامية وأخلت القلعة وولت الادبار فاحتلها كليف دون أن يطلق رصاصة واحدة .

وكان كليف يعلم أنه لن يترك آمناً في اركوت وإنه سيهاجم حالاً فأقبل على جمع الأقوات والذخائر وتقوية الاستحكامات إستعداداً لحصار ومواجهة الهجوم المتوقع . وكانت الحامية التي هربت عند مقدمه الى ضواحي المدينة قد جاءها مدد أصبحت به عدتها ثلاثة آلاف رجل عسكرت بظاهر المدينة حتى أقبل المساء ، فخرج عليهم كليف فجأة ، وأصلى فيهم القتل ، فمات كثيرون وهرب الباقون . وأخيراً عاد الى قلعته دون أن يخسر رجلاً واحداً من رجاله .

وبلغت أنباء هذه الأحداث الى شندا صاحب حيث كان يحاصر هو وحلفاؤه الفرنسيون مدينة تريشنوبولي ، فجرّد أربعة آلاف رجل من جنوده وأمرهم بالسير الى اركوت . وهناك انضمت إليهم فلول حامية المدينة التي بقيت من المعركة السابقة كما جاءهم مدد آخر ، إن يكن أقل عدداً ، إلا أنه كان أكثر أهمية من الوجهة الحربية . وكان هذا المدد مكوناً من مائة وخمسين جندياً فرنسياً أرسل إليهم من بونديشيري . وبهذا أصبح عدد القوات المتحالفة عشرة آلاف مقاتل يتولى قيادتهم راجا صاحب ابن شندا صاحب .

وتقدم بهذه الحملة نحو قلعة اركوت مصمماً على حصارها ، وكان يرى أن هذا الحصار كافٍ للإستيلاء عليها تماماً و رأيه لم تكن لتحتمل الحصار الطويل لتهدم جدرانها وجفاف الخنادق المحيطة بها وعجز المدافع المخصصة لتصويب القذائف في أعالي الأسوار.

ودام الحصار خمسين يوماً تناقص خلاله عدد الحامية فأصبح ١٢٠ أوروبياً و٢٠٠ وطني ، ولم يكن بين هذا العدد من الضباط سوى أربعة . أما القوة فأوشكت على الفناء وكان الذي يتولى قيادة الحامية شاب في الخامسة والعشرين من عمره كان عمله أصلاً كاتباً في أحد مكاتب الشركة .

ولكن هذا الشاب « كليف » أبدى في قيادته الحزم والقدرة واليقظة ما لو أبداه أي قائد عظيم في أوروبا لنال من أجله أعظم الأوسمة وأفخر الشارات . ولكن الانحلال بدأ بعد هذه المدة الطويلة يدب في قوى الحامية إذ بدأت تحس وطأة الجوع القاسي . ولكن رغماً من قلة عدد الضباط ورغماً من اختلاف العناصر التي كانت تتألف منها تلك الحامية لم تظهر روح التمرد والعصيان بين الجنود ، وهي الروح التي كان من المحتمل أن تظهر بين أمثالهم في ظروف مشابهة . ذلك لأن حب كليف الذي كان قد تمكن من قلوب جنوده وإعجاب هؤلاء به، قرب بينهم وأزال الفوارق الدينية والعنصرية وزاد روح التضحية عندهم قوة . ويمكننا أن نعلم قوة هذه الروح بين أولئك الجنود من تقدم الوطنيين الى كليف وهو في إبان أزمته ، لا ليشكوا قلة الجراية المخصصة لهم، ولكن ليقترحوا عليه أن يخصص الحبوب كلها للاوربيين من زملائهم لانهم على حد قولهم أكثر حاجة الى التغذية منهم لانهم لم يتعودوا الصبر على الجوع كما تعودوه ، ولانهم غرباء أحق بالرعاية . وعرض أولئك الهنديون على قائدهم أن يطعمهم بنشاء الارز الذي كانوا قد تعودوه غذاء لهم ولم يرو التاريخ أروع من هذا المثل في التضحية والوفاء العسكري ، ولا أبلغ منه دلالة على محبة الجنود لقائدهم .

* * *

ولقد حاولت حكومة مدراس أن ترفع الحصار عن أركوت، ولكن هذه المحاولة فشلت، وظلت الحامية تقاسي متاعب هذا الحصار حتى لاح بريق الأمل من ناحية أخرى . ذلك أن جيشاً قوامه ستة آلاف من جنود (المهراتا) الذين اتخذوا الجندية مهنة وتعلم الفارق

وحيلة لاميش بقودتم موررازي راو كانوا قد احتقروا ابحملة محمد علي في تريشنوبولي، الا أنهم احتضموا وقتاً طويلاً من هذه البعثة .

فقد كان يظهر أن قوة فرنسا لا تقاوم، وأن النصر حالف لشندا صاحب الذي آشد أزره هذه القوة، فظلوا لا يحركون ساكناً مقيمين على حدود الكرنات . حتى إذا علموا نبأ حصار أركوت وتلك القوة العجيبة التي أبداها الانجليز في مقاومة هذا الحصار، أيقظهم ذلك من سباتهم وأعلن موررازي راو أنه لم يظن أبداً أن الانجليز يستطيعون الحرب الى هذا الحد . أمّا وقد رأى منهم ما رأى، فانه سيساعدهم ما وسعته المساعدة . وعلم راجا صاحب أن المهراتا في طريقهم اليه، وانه لابد من الاقدام على عمل سريع يتفادى به الالتحام مع تلك القوة الخطرة، فحاول بادىء ذي بدء مفاوضة كليف وعرض عليه رشوة كبيرة لعله يقبل شروط الصلح التي عرضها عليه، ولكن هذا رفضها باستهانة وصلف، فاضطر راجا صاحب إلى أن يثور ويعلن أنه اذا لم تقبل شروطه فانه سيقوم بهجوم عام على القلعة وانه سيقتل جميع من فيها بلا استثناء . فردّ عليه كليف في ازدراء وتهكم بهذا الوعيد .

وأخذ كليف يعد عدته لمقاومة الهجوم المنتظر ويقوي من استحكامات القلعة ويرتب مواقف الجنود ويجهز الذخائر ويصلح من أدوات القتال . حتى بدأ الهجوم العظيم — فتقدمت الفيلة التي تغطي رؤوسها صفائح الحديد .

كان قائد المهاجين مطمئناً الى أن أسوار القلعة ستتداعى تحت أقدام هذه الفيلة وأن الامر لن يكلفه أكثر من ذلك . ولكن هذه الفيلة ما اصطلت بنار الانجليز حتى ولت الادبار وداست بأقدامها في تقهقرها أولئك الذين كانوا يسوقونها . الاّ أن بعض جنود راجا صاحب استطاعوا عبور الخندق المحيط بالقلعة ولكن رصاص المدافعين ردهم منها أكثر من مرتين . ودام القتال ساعة سقط فيها أربعمائة رجل ولم يفقد المدافعون غير خمسة أو ستة رجال . وقضى كليف ليلة عصيبة كان يتوقع خلالها أن يقوم راجا صاحب بهجمات جديدة، ولكن ما انبثق ضوء الفجر حتى لم يعد للمهاجين أثر، فلقد فروا تاركين وراءهم سبعة مدافع وكمية كبيرة من الذخائر . وهكذا رفع الحصار عن أركوت .

النصر

ووصلت هذه البشرى الى قلعة سان جورج فعم السرور والابتهاج ، وأصبح كليف في أعين رجاله وجنوده قائداً موفقاً ، فأرسلت اليه حكومة مدراس مائتي جندي انجليزي وسبعمائة جندي هندي لتعزيز قواته . فلما وصلت كليف هذه الامدادات تحول بها من الدفاع الى الهجوم فزحف بقواته على قلعة تيمري واستولى عليها ، وهناك انضم بجزء من قوات موراري راو فضمها تحت لوائه وسار بهذه الجيوش لمواجهة راجا صاحب الذي كان على رأس خمسة آلاف رجل بينهم ثلثمائة فرنسي فدارت بين الفريقين معركة حامية نال فيها كليف نصراً حاسماً استولى به على خزانة راجا صاحب، وانضم اليه على أثره ستمائة هندي من جنود الراجا واستطاعت أن تخضع دون أن يطلق رصاصة واحدة، وكذلك انضم اليه حاكم «أرنى» بعد أن ترك جانب شندا صاحب وأقر بولاية محمد علي.

ولو كان الأمر بيد كليف وحده لسار به الى نهاية طيبة وسريعة ولكن الحذر والضعف اللذين كانت حكومة مدراس تبديهما في قراراتها وأوامرها، كل هذا أطال أجل الصراع دون أن تكون هناك ضرورة لذلك ، فاستطاع راجا صاحب خلال فترة التردد هذه أن يجمع شمله وان يسير على رأس جيش قوي بينه أربعمائة جندي فرنسي الى قلعة سان جورج، فلما صار في ضواحيها اعتدى على مساكن موظفي الشركة الانجليز وخربها ولكن كليف سارع اليه واستطاع أن يحيط بجنده ويهزمهم هزيمة منكرة قتل فيها فيمن قتل مائة جندي فرنسي وكان هذا خسارة كبرى ، تعادل خسارة بضعة آلاف من الوطنيين . وحينئذٍ اتجه كليف ببصره نحو قلعة سان دافيد .

سار كليف وقد قويت روحه المعنوية كثيراً الى قلعة سان دافيد ومر وهو في طريقه اليها بمدينة دوبليه الفاتح والنصب التذكاري المقام بها وأمر بتدمير المدينة والنصب تدميراً شاملاً . ولم يصدر في ذلك الأمر عن غيرة شخصية ؛ ولكنه صدر عن رغبة ملحة لازالة العقيدة التي تركها في نفوس الأهالي أقامتها . وليبدد ذلك المظهر الرائع الذي كانت تلك الآثار تضفيه على الفرنسيين حتى تسرب الى نفوسهم الاعتقاد بأن فرنسا لا تقهر ، وأنها هي الدولة الاوربية الأولى التي لا يمكن للانجليز مقاومة سياستها .

وقررت حكومة مدراس أن [illegible] كل هذا النصر بفرق قوية لإنقاذ حامية قلعة تريشنوبولي . وبما تم إعداد [illegible] كان الميجور لورانس قد وصل من انجلترا وتقرر أن يتولى القيادة العامة [illegible] ومن سخرية الظروف أن يتحكم أشرور في نفس كلايف بعد كل ما هيأ له من نصر وتألق في العمليات الحربية التي قام بها أو تثور فيه نزعاته القديمة التي ظهرت فيه طفلاً وصبياً من العناد والمكابرة ولكنه لم يرفض العمل تحت قيادة الميجور لورنس . ولكن المدهش حقاً والذي يدل على علو نفس كلايف أنه خضع لقيادته . فلم يبد أي تراخ في أداء واجباته بل كان مخلصاً كل الإخلاص مطيعاً تماماً .

ولم يكن لدى الفرنسيين قائد يستطيع أن يقف أمام الصديقين ، إذ أن شهرة دوبليه كانت قائمة على أساس أنه سياسي داهية صاحب نصيب كبير في تلك المؤامرات والمفاوضات التي تمت حينذاك في بلاد الهند . أما دوبليه المحارب فلم يكن ليستطيع أن يقود جيشاً أو يخوض معركة فلم يكن جندياً يوماً ما ولم تكن به رغبة ليصبح كذلك حتى لقد اتهمه أعداؤه بالجبن . ولكي يدحض هذا الاتهام حكي عنه أنه في خلال إحدى المعارك صارع إلى قنبلة ملقاة على الأرض عقب إهمالها ولكنه بلغها متأخراً . فلما انفجرت كسته بطبقة من التراب فالتفت إلى جنوده قائلاً (ها أنتم ترون يا أبنائي أنها لا تضر) . ويرى النقاد الحربيون أنه لم يكن قائداً بل كان كل ما يصلح له إنما هو وضع الخطط الحربية . ولقد دفع دوبليه عن نفسه تهمة الجبن بقوله إنه يفضل الابتعاد عن مواطن الضرب ، لأن الهدوء والسكينة تخلقان الجو المناسب له ، والذي يستطيع فيه أن يضع خططاً محكمة تجيء متى نفذت بدقة ، بنتائج طيبة . ولكنه كان دائم الشكوى من أنه لم يكن لديه ضباط يحسنون تنفيذ خططه بإحكام . ذلك بعد أن ترك « بامي » ولحق ببلاط النظام وبقي في خدمته يرعى مصالحه الشخصية ويخدم وطنه عن طريق السياسة ، وأن من بقي لديه من ضباط إنما كانوا شباناً يجهلون شئون الحرب ولم يكن بينهم من كان متصفاً بأية مهارة أو حذق .

وانتصر الانجليز في كل مكان فبعد أن كانوا محاصرين في قلعة تريشنوبولي أصبحوا هم يحاصرون أعداءهم ويكرهونهم على الاستسلام . ووقع شندا صاحب أسيراً في أيدي الميراتا وأعدم . ويقال إن هذا الإعدام تم بناء على طلب محمد علي . وبهذا تم انهيار سياسة دوبليه

وغضبت عليه ادارة الشركة الفرنسية في باريس فسكتت عن مده بالعون والتشجيع ، ورغم هذه الصعوبات ، فان دوبليه لم يتطرق اليأس الى نفسه ، ولم تثبط همته ، ولا نضبت موارده فواصل مقاومة الانجليز بالطريقة التي يفهمها ، طريقة الدس والمؤامرات وبذل المال بالرشوة والاسراف في الوعود الخلابة ، حتى نفدت ثروته بل اضطر الى الاستدانة . كل ذلك في سبيل إثارة أعداء جدد على حكومة مدراس . واستطاع أن يجد أعواناً له ولكنه رغم هذا كله قد ذهبت جهوده أدراج الرياح لأن قوة بريطانيا في الهند كانت قد أخذت في النماء على عكس ما حدث لقوة فرنسا التي بدأت تنهار وكان انهيارها سريعاً .

ولم تكن صحة كليف منذ أن نزل أرض الهند طيبة يوماً ما ، ولكنها بلغت من السوء ما حمله على أن يصمم على العودة الى انجلترا . وساقت إليه الظروف عملاً وحتمت عليه أن يؤديه قبل رحيله وكان هذا العمل الذي وكل إليه به ، هو حملة مجهدة زادت متاعبه وآلامه . ولكنه قام بها بكل نشاط ومهارة . ذلك أن قلعتي كرونلوجم وشنجلبت كانتا في أيدي الفرنسيين ورأى الانجليز أن يقوموا باحتلالها ووضعت الخطة لإتمام هذا الاحتلال. ورأى ولاة الامور أن خير ضابط يمكن اسناد رئاسة الحملة إليه هو كليف ، وكان قوامها خمسمائة جندي حديثي عهد بالتدريب العسكري ومائتي انجليزي جند استطاعت الشركة أن تجمعهم من مكان أحط أحياء مدينة لندن ، وكانوا يتصفون بسوء السلوك وفساد الاخلاق . ولم يكونوا على شيء من الروح المعنوية . ورغم هذه الظروف جميعاً تولى كليف قيادة هذه الحملة وهو مريض وضعيف وسار بالحملة الى كرونلوجم الى أن صار تحت أسوارها . وما أن أطلقت منها رصاصة على جنوده وصادفت مقتلاً من أحد هؤلاء الجنود وهوى صريعاً بين زملائه حتى راعهم الامر وولوا الادبار . وقاسى كليف الأمرين في سبيل إعادة الطمأنينة الى نفوس الجند وحملهم على الثبات في القتال ومجابهة الخطر ، وكان يضرب لهم المثل الطيب بوقوفه بينهم وفي الصف الأول من صفوفهم حتى استطاع أن يجعل من تلك القوى المنحلة قوة واحدة متماسكة وقوية ، استطاعت أن تفتح كرونلوجم . وعلم كليف إذ ذاك أن حملة قوية قد أرسلت من شنجلبت لإنقاذ كرونلوجم . فأعد لها كميناً في الطريق وقع فيه الفرنسيون القادمون ومات منهم مائة رجل وأسر ثلثمائة وفر الباقون ، وأخذ يتعقب كليف هؤلاء الفارين حتى أبواب

فتحليت وكانت من كبريات المدن الحصينة بالهند وحاصرها حتى استسلم له قائدها .

وعاد كليف الى مدراس منتصراً ولكن حالته الصحية كانت قد ساءت الى حد كبير وزاد في ضعف صحته ذلك الإجهاد الكبير الذي عاناه في حملته الأخيرة فلم يكن بد له لا سيما وقد تزوّج ، من أن يعود الى انجلترا بصحبة عروسه التي كانت من عائلة كبيرة وكانت هذه العروس فتاة رشيقة ومتعلمة ومخلصة وهبته كل قلبها .

العودة الى الوطن

وأبحر كليف عقب الزواج مباشرة ومعه عروسه ووصل انجلترا فاستقبلته البلاد رغم أنه كان في السابعة والعشرين من عمره إستقبال القواد الفاتحين ، لأنها كانت ترى فيه أحد قوادها المبرزين . ذلك لأن أوروبا كانت في تلك الآونة تتمتع بالسلام فلم تكن هناك حروب إلا في أقليم الكرنات في الهند بين الانجليز والفرنسيين ، وكانت أعمال دوبليه تثير قلقاً كبيراً في لندن وكان لكليف الفضل الأكبر في إزالة هذا القلق بشجاعته وكفاءته اللذين أبداهما في الانتصار على الحاكم الفرنسي . وأطلقت عليه الشركة لقب الجنرال كليف . وبهذا اللقب نودي في جميع الإحتفالات التي أقيمت له . وقدمت له هدايا ثمينة كان بينها سيف مرصع بالجواهر ، ولكنه رفض قبوله ما لم يمنح الميجور لورنس مثيلا له . وكان هذا اعترافاً منه بفضل صديقه ورئيسه ووفاء منه له ، ولم يقتصر تكريم كليف على الشركة ، بل كان تكريمه عاماً ساهمت فيه الهيئات والأفراد .

وكذلك أحسنت أسرة كليف إستقباله والترحيب به بعد إذ أبهجها نجاحه وسرها ما نال من توفيق وعجبت كيف أصبح روبرت الخامل في صباه ، رجلا عظيماً في شبابه بل إن والده كان لا يؤمل قطعاً في أن يبلغ روبرت أي نجاح أو يصل الى أي نبوغ حتى علم أنباء دفاع كليف عن أركوت ، حينئذ قال إن أمله في ولده بدء يبعث من جديد . وما زال تقدير مستر ريتشارد لولده يزداد عقب كل نجاح يحرزه ، حتى تمكن من فؤاده حبه وتقديره ، بل وأصبح يفخر بذلك الابن .

وأصاب روبرت كليف بعض المال قبل عودته الى أرض الوطن وزاد نصيبه مما منحته إياه ادارة الشركة في لندن ولم يكن أنانياً ولا جشعاً كما انه لم يكن ابناً عاقاً فسدد ديون

أبيه كلها وعمل على اصلاح مركزه المالي اصلاحاً شاملاً وشمل مورمنته بعنايته من [illegible] بالاصلاح والرعاية والتجديد حتى عاد لها بهاؤها ورونقها وغناها وزاد انتاجها ونما دخل خيراتها . وحتى أمكن الى أن يطمئن الاب أن يعيش مما لديه من خير كثير في أمان . ولما كان بارًّا بأبيه كان بارًّا بنفسه فأخذ يصرف عن سعة وعاش مدى عامين في انجلترا عيشة بذخ وترف أتت على ما كان قد بقي لديه .

وحينئذ فكر في العودة الى بلاد الهند ولما كانت الحكومة تفكر في اعادته الى تلك البلاد كذلك كانت الشركة ترى ضرورة ارساله اليها حيث كانت الحال تستدعي وجوده هناك واستغلال مواهبه وكفاءته وخدماته، إذ انه رغماً من وقوف الحرب بين الانجليز والفرنسيين في مقاطعة الكرنات بعقد معاهدة كانت في صالح الانجليز أعقبها عزل دوبليه وعودته الى فرنسا — بعد اذ فقد ثروته التي كان قد قضى زمناً طويلاً في جمعها وفقد أمله في تكوين إمبراطورية فرنسية في الهند — حيث مات حزيناً . فان الدلائل كلها كانت تنذر بوقوع حرب طويلة بين الفرنسيين والبريطانيين وكان لا بد من ارسال قائد ماهر الى ممتلكات الشركة الانجليزية بالهند فتقرر تعيين روبرت كليف حاكماً لقلعة سان دافيد ومنحه الملك رتبة لفتننت كولونيل في الجيش البريطاني . وهكذا اجتمعت في هذا التعيين رغبات ثلاث . رغبة الحكومة ورغبة الشركة ورغبته الشخصية . فأبحر الى اقليم الكرنات في عام ١٧٥٥ .

في اقليم البنغال

وكان أول عمل حربي قام به كليف بعد عودته الى الشرق هو الاستيلاء على معقل القرصان (انجيريا) في (غريا) الحصينة والمقامة على شبه جزيرة صخرية يحيط بها الماء من معظم جهاتها . وتعاون معه في هذا العمل الاميرال وطسن بأسطوله واستطاع بهذا التعاون الاستيلاء على الحصن وعلى جميع ما كان به من مال بلغت قيمته مئة وخمسون الفاً من الجنيهات تناهبها الغزاة .

وعاد كليف الى مقر عمله في قلعة سان دافيد ولم يمض على مقامه بها أكثر من شهرين حتى بلغه نبأ أثار حيرته ونشاطه الذهني .

وكان هذا النبأ يتعلق باقليم البنغال الذي كان يمتاز بوفرة حاصلاته وجمال مناظره وخصب

أراضيه ، فضلاً عن وداعة أهله ورقتهم ، وحبهم الدائم للسلم ولباقتهم في الحديث . وكانت الشركات التجارية الأوربية قد أنشأت لها فروعاً بين ظهراني أهل الاقليم . فالفرنسيون استقروا في شندر ناجور ، والهولنديون في شينصوراه والانجليز في منطقة قريبة من البحر أنشأوا فيها قلعة وليام لتحمي كنائسهم ومخازنهم ومنازل كبار موظفيهم القريبة منها والممتدة على شاطىء نهر الكنج . وعلى كثب منها قامت قرية وطنية كثيرة السكان كبيرة الحركة كان يقيم بها بعض كبار التجار الوطنيين . وكان هذا الجزء من الاقليم الذي اختاره الانجليز لمقامهم أهم أجزاء اقليم البنغال لقربه من البحر ولوفرة حاصلاته ما كان منها ينمو على سطح الأرض وما يعيش منها تحت سطح الماء .

وكان اقليم البنغال وأوريسا وبيهار خاضعاً لحكم علي واردي خان الذي كان يتبع امبراطور المغول اسماً ، ولكنه كان يتمتع في حدود مملكته بكل سلطات النفوذ الواسع وكان منشأ علي وردي خان هذا انه كان خادماً في اقليم بيهار واستطاع أن يستغل الظروف الواحدة تلو الأخرى ، حتى أصبح نواباً لتلك المقاطعة ثم استغل أيضاً فرصة اكتساح نادر شاه البلاد المغول في عام ١٧٣٩ فقام بثورة على الأسرة التي كانت تحكم اقليم البنغال كله باسم ملك المغول وقتل في معركة غريا في يناير سنة ١٧٤١ رأس هذه العائلة وحل محله على العرش . وفي العام التالي استطاع أن يقدم الى الامبراطور كثيراً من الهدايا فوافق جلالته على تعيينه نائباً له في أقليم البنغال وأوريسا وبيهار ولم يكن علي وردي خان في حاجة الى هذه الموافقة إلا ليكتسب صفة شرعية في حكم البلاد .

ومات في عام ١٧٥٦ وورث عنه ملكه حفيده الشاب سراج الدولة الذي يحكى عنه أنه ولد بغير عاطفة ، فقد كان في طفولته يتلهى بتعذيب الحيوانات الصغيرة لا سيما الطيور وكان كلما تقدمت به السن نحو الشباب ازداد قسوة ووحشية نحو الحيوان بل ونحو اخوانه في الانسانية وأصبح يحلو له أن يشهد الناس يتألمون ويبهجه عذابهم . وكان سكيراً مدمناً أتت الخمر على ما كان قد بقي من عقله الذي ولد به . ولي الحكم في العشرين من عمره وكان مستبداً بطيء الفهم يرضيه ما تبذله له حاشيته من ألفاظ متملقة ، وما تتملقه به من مديح وإطراء .

ولقد كان سراج الدولة يمقت الانجليز منذ طفولته ويكرههم بغير ما سبب ويستحل سلب أموالهم ، والآن وقد آل اليه الأمر فقد تلمس سبباً لاعلان الحرب عليهم ووجد هذا السبب في قيامهم بتحصين قلعة وليم وكان سر هذا التحصين هو ان الانجليز كانوا يتوقعون نشوب حرب مع الفرنسيين وساء سراج الدولة أن يلجأ الانجليز الى هذا التحصين دون أن يحصلوا على اذن منه بذلك . وثمة سبب آخر تذرع به سراج الدولة لحربه مع الانجليز، ذلك أنهم آووا في كلكتا ثرياً من أثرياء الهند كان قد بلغ من الثراء مبلغاً يستبيح فيه أمير الاقليم عادةً قتل أمثاله وسلبهم أموالهم وكان هذا الثري قد عين حاكماً على دكا في الوثيقة التي خلت بقتل حاكم تلك المدينة والاستيلاء على أمواله . فلما رأى ذلك الثري المصير الذي ينتظره تظاهر باعتزام الحج . وجمع أمواله كلها وأرسلها الى ولده في كلكتا ، ثم لحق به الى هناك . فلم يقبل الانجليز تسليم اللاجىء الى طالبه . ورأى سراج الدولة في هذين السببين مبرراً كافياً للقيام بحملة ضد الانجليز فسار إليهم على رأس جيش كبير .

وكان الانجليز في أقليم البنغال غير إخوانهم في منطقة مدراس فهؤلاء أصبحوا رجال سياسة وحرب بفضل احتكاكهم بدوبليه ، أما أولئك فلم يعدوا كونهم رجال تجارة فحسب فان وكيل الشركة نفسه لما علم بتقدم سراج الدولة إليه ، وكان يعلم قبلاً مبلغ قسوته . إنتابته الحيرة والارتباك ، فلم يدر ما هو صانع حيال ذلك الخطر الداهم ، وأخيراً إهتدى إلى وجوب الإتجاه إلى إحدى السفن الانجليزية الراسية في الميناء . وكذلك حذا حذوه قائد حامية قلعة وليم . وقنع الاثنان بالأمان في مخبئهما ، ولم يقوما بأية محاولة لإنقاذ باقي رفقائهما الذين كان من الممكن جداً إيواؤهم في تلك القوارب التي كانت تملأ مجرى النهر ولقد سجل التاريخ عليهما هذه المرة إذ لم يروا شبيهاً لها في تاريخ الامبراطورية البريطانية على وجه خاص .

وبعد مقاومة هزيلة استولى سراج الدولة على القلعة وأسر من وجدهم فيها من الانجليز ، حتى إذا استتب له الأمر جلس في قاعة الشركة الكبرى . وأمر فأحضر بين يديه مستر هولويل الذي كان أهم رجل بين الأسرى ، وتحدث إليه عن مبلغ إساءة الانجليز إليه واعتدائهم عليه . وأبدى له استياءه من قلة ما وجد من المال إلا أنه وعد بإطلاق سراح أسراه من الانجليز . ثم أمر رؤساء جنوده بالمحافظة على هؤلاء الأسرى وآوى إلى مضجعه .

غرفة الموت

وفي تلك الليلة حدثت الجريمة التاريخية الكبرى التي امتازت بالوحشية والأعمال الانتقامية التي قام بها الانجليز عقب ذلك ، فان الأسرى الانجليز حشروا حشراً في غرفة ضيقة سيئة التهوية لا تزيد مساحتها عن ٢٠ قدماً مربعة . أما الذين حشوا فيها فقد كان عددهم مائة وستة وأربعين رجلاً . فلم يستطع أحدهم أن ينحني أو يجلس ، وقد كان منهم المسن والضعيف . وكان الجو في تلك الليلة خانقاً خارج الغرفة الجهنمية فما بالك به في داخلها وذهبت محاولات أولئك الأسرى للافراج عنهم سدى وتوصلاتهم أدراج الرياح ، وأغلق الباب عليهم ، وظلوا فيها طول ليلهم ، يستبد بهم العطش والتعب ، يطلبون الرحمة فيقابلهم الحراس المطلون عليهم من كوى بأعلا الجدار بضحكات السخرية والاستهزاء وحاولوا بعامل اليأس تحطيم الباب ولكن الباب كان متيناً . وحاول هولويل رشوة الحراس ولكنهم قالوا إن الأمر كله بيد سراج الدولة ، وعظمته نائم لا يمكن إيقاظه بل إنه من الخطورة بمكان أن يحاول أحد إيقاظه . وأخذ الأسرى وقد ذهب برشادهم اليأس يتزاحمون في محبسهم ويدوس بعضهم بعضاً في تدافعهم نحو منافذ الهواء الضيقة ليطلبوا شربة ماء ، فلا يقابلوا إلا بالاستخفاف والامتهان . وأخيراً لجأوا إلى أن يطلبوا من الموكلين بهم إطلاق النار عليهم لا راحتهم من عذابهم الذي كانوا يقاسونه ولكن كان نصيب طلبهم هذا الإهمال .
وتقدم الليل وتقلصوا هم إلى الفناء نقلت المحاولات ، وضعفت القوى ، وخفضت التنهدات وانعدم البكاء ، حتى إذا انبلج الصبح واستيقظ صاحب العظمة وأمر بإطلاق سراح السجناء لم يبق من يطلق سراحه إلا ٢٣ عشرون هيكلاً بشرياً . وأخذ الحراس يزيحون أجسام القتلى يميناً ويساراً ليفسحوا ممراً بين الجثث لتلك الهياكل المتمايلة تخرج منه الى الهواء متساندة من الضعف والخور مغادرة غرفة الموت . وحفرت حفرة واحدة جمعت فيها بقايا الهالكين وهيل عليهم التراب .

ولم تأخذ سراج الدولة رحمة بمن ماتوا ، ولا رأفة بمن بقوا ، بل أمر فأوتي بهم إليه وهددهم بشتى أنواع التنكيل إذا هم لم يبوحوا له بسر مكان خزائن الشركة . ثم سيرهم في شوارع المدينة زيادة في التشهير بهم ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً . وأخيراً خلى عنهم لا لأنه

رأى أن العفو أصلح ، ولكن لأن ... قريباته توسطت لديه في شأنهم بعد ما تحمته من الانجليزية الوحيدة التي قدّر لها أن تعيد ... ما شاهدته في تلك الليلة الليلاء في غرفة الموت ثم ضمت الى حريم عظمته .

جزاء كليف

وأرسل سراج الدولة الى جلالة الامبراطور في دلهي ينبئه بما حصل بالانجليز وغادر كلكتا بعد أن غير إسمها الى «ميناء الله» وبعد أن أبقى بقلعة وليم حامية هندية . وفي ١٦ أغسطس من ذلك العام وصلت الى مدراس أنباء سقوط كلكتا ، فأثارت حقد الانجليز وأخذوا ينادون بوجوب الأخذ بالثأر والانتقام . واجتمع الرأي على تجريد حملة إلى أقاليم البوجال تحت قيادة كليف وأن تصحب الحملة قوات بحرية تساهم معها في العمليات الحربية المنتظرة . وأن يتولى أمرها الأمير ال واطسن ، وفي ١٦ اكتوبر أبحرت الحملة وكان قوامها تسعمائة جندي انجليزي من خيرة الجنود ، وألف وخمسمائة جندي من الهنود المدربين تدريبا عصريًا . ولم تصل هذه القوات إلى أقليم البنغال إلا في شهر ديسمبر من نفس السنة ذلك ، لأن الرياح لم تكن مواتية . وحينما نزل الجنود إلى البر في أقليم البوجال وبلغت أنباؤها مسامع الامير وهو في مرشد آباد استهان بأمرهم إذ لم تكن لديه أية فكرة عن الجيوش الاوروبية ونظامها ورغم هذه الاستهانة فقد أمر بجمع قواته كلها في مرشد آباد حتى إذا تم له ذلك زحف بهذه القوات صوب كلكتا . واستولى كليف على بدجبدج وطرد أتباع سراج الدولة من قلعة وليم واستعاد كلكتا وفتح أقليم البوجال جميعه ، وراع الأمير ما بلغه عن قوة الانجليز وما رآه من سرعتهم في الفتح والاستعمار ، فعرض الصلح على الترلة على أساس أن يستردوا ما كان قد أخذه منهم وأن يدفع لهم تعويضاً عما لحق بهم من خسائر .

وداخل كليف الشك في عروض الأمير سراج الدولة ولكنه كرجل حرب رأى أن قواته محدودة فعقد مجلسا حربيًا كان بين أعضائه موظفو الشركة الذين كانوا قد هربوا من كلكتا . وكان كل همهم أن يعودوا إلى وظائفهم وأن يظفروا بتعويض عن الخسائر التي لحقتهم . وفي ذلك الوقت كانت الحرب قد نشبت في أوربا وخشيت حكومة مدراس احتمال قيام الفرنسيين بهجوم عليهم ، وأصابهم من أجل هذا الخاطر قلق عظيم وصارت تنتظر

عودة كليف اليها بنازع الصبر ورأى روبرت أن عروش الأمير سخيفة،وان نتيجة النضال معه غير مأمونة، وانه من نافل أن يصطلح معه مبدئياً أمده، لان الظروف لم تتح له نصراً مؤزراً كما يبغي ويشتهي.

بدأ كليف حياته عسكريّاً من الطراز الاول،ولكنه أضاف الى هذه الصفة منذ تلك المفاوضات التي دارت بينه والامير صفة السياسي ، بل غلبت هذه الصفة على صفته الأولى، ونال في ميدان السياسة من النجاح ما فاق كل نصر أحرزه بصفاته العسكرية قبلاً . الا أن هذا الميدان كان شؤماً عليه،وكان العامل الاول في سبيل هدمه .

ويرى ماكولي أن كليف لم يكن رجلاً سيئاً بطبعه ، بل كان شجاعاً الى حد التهور مخلصاً الى حد الانخداع بالظواهر،مندفعاً في صداقته صريحاً في عداوته . لم يحاول مرة وراء في تلك البلاد النائية عن وطنه ، أو بين مواطنيه أن يخدع أحداً من بني جلدته . وقد كان يرى أن السياسة في بلاد الهند تستدعي منه أن يكرر على الصفات التي اتصف بها فيما بعد . فكان يعلم انه سيعامل رجالاً ما يأبهون كثيراً بالمحافظة على الوعود أو العهود ، ولا يحجمون في سبيل تحقيق أغراضهم عن الاتجاه الى الغش والتزوير ورأى انه من الخرق في الرأي أن يتمسك بالمثل الاخلاقية العليا في محيط من الناس لا يؤمن بها . ولهذا خلع كليف رداء الجندية ، وماكانت تمليه عليه من مبادىء وصفات مادية ، واكتسى ثوباً يتناسب مع عقيدته الجديدة التي زادها تمكناً من نفسه أول تجربة شهدها مع الامير سراج الدولة.

إذ بيناكانت المفاوضات دائرة بين كليف من جهة وسراج الدولة من جهة أخرى ، وكان يمثل كليف فيها وكيلان أحدهما مستر وطسن الموظف بفرع الشركة في اقليم البنغال: وثانيهما أحد البنغاليين واسمه أوميشند ، وكان أوميشند هذا تاجراً ثريّاً من أثرياء كلكتا ، وضاعت ثروته كلها خلال حملة سراج الدولة على كلكتا وكان يؤمل الحصول على تعويض طيب من وراء هذه المفاوضات الدائرة، وكان ذا تأثير كبير في مواطنيه،كما كان على قدر كبير من صفات الهندوس،ومنها قوة الملاحظة،وسرعة البديهة والذكاء ، وحسن التصرف،وكان يجمع إلى هذه الصفات رذائل الهندوس ، ومنها ضعة النفس والجشع والخيانة ، بينما هذه المفاوضات سائرة في طريقها الطبيعي،اذا بسراج الدولة يحاول القيام بعمل حربي طمعاً في

أن يؤثر ما يسفر عنه في سير المفاوضات، ولكنه رأى في صمود الانجليز وقوة بأسهم ما جعله يكف عن الحرب، ورضي بشروط كليف للصلح. وما انتهت المعاهدة حتى غير سراج الدولة اتجاهه، وعوّل على مناهضة الانجليز بكل الوسائل متفقاً مع السلطات الفرنسية في شندرناجور، وطلب الى باسي أن يسير من الدكن الى المرجلي ليطرد الانجليز من ذلك الاقليم. وعلم كليف وواطسن بسر هذه المؤامرة، فعول الرجلان على أن يقوما بضربة قاضية، وان يغزوا شندرناجور ويستولوا عليها قبل أن تصل اليها امدادات جديدة من بونديشيري أو من فرنسا. وترأس واطسن القوات البحرية وتولى كليف قيادة الحملة البرية وكان نجاحهما سريعاً وراتئاً فان القلعة، حاميتها وقوات البحرية والمدفعية كل هذه استسلمت سريعاً للانجليز وكان بينها عدد من الفرنسيين يقرب من خمسمائة.

مؤامرات

وهكذا ضاعت على سراج الدولة فرصة ضرب الانجليز بالفرنسيين وازداد خوفه منهم وكراهيته لهم معاً، وأخذ يتردد بين مسالمة الانجليز ومظاهرتهم بالعداء، فبينما كان يرسل بعض المال كجزء من التعويض المفروض عليه الى كلكتا، إذا به في اليوم التالي يبعث الى باسي هدية سنية طالباً اليه أن يسرع لانقاذ البنغال من أيدي كليف، ويصدر أمره للجيش بالزحف على الانجليز، ثم يعود ثانية الى الغاء هذا الامر فاذا جاءته رسالة من كليف مزقها وألقى بها في وجه الرسول. وأخيراً يكتب الرد على هذه الرسالة ويتحرى الأدب واللياقة في هذا الرد. ولقد حدث أن طرد مستر واطسن من حضرته، ثم عاد فأمر بادخاله عليه، واعتذر له عما بدر منه في حقه. وكان سوء أخلاق الأمير وجنونه وسوء سياسته، وإيثاره الدهماء على أوساط الناس وكبارهم، سبباً في أن ينفر منه هؤلاء سواء كانوا من المسلمين ذوي النخوة والصراحة، أم من الهندوس الماكرين الخشوعين، وأن تجتمع كلمة هؤلاء التآمرين على الائتمار به وفي هذا يقول كليف في رسالة له الى مستر بيجوت حاكم مدراس (كانت صفاته سبباً في أن تمقته فئة من الرجال الممتازين في الاقليم. ويمكن أن أقول لك أن مؤامرة واسعة النطاق تحاك خيوطها الآن بمهارة بأيدي دهاة الممالك وعلى رأسهم جاجت سيت بنفسه، ولقد طالبت

حتى المعاونة والى لقتنع كل الاقتناع بأنه لن يكون هناك سلام أو أمان حيث يحكم مثل هذا الشيطان، وستسمع قريباً عن ثورة تضع حداً لآمال الفرنسيين في النفوذ في هذه البلاد».

وكانت المؤامرة التي أشار إليها كليف في رسالته تشمل راجا دولاب رام وزير المالية ومير جافير القائد العام للجيش وجاجت سيت أغنى ممول في الهند . وكان الانجليز على علم بها كما جاء في رسالة كليف وكان الاتصال مستمراً بين المتآمرين في مرشد اباد والمجلس الانجليزي في كلكتا .

وفي هذا المجلس الذي كان بطيئاً في قراراته، وقف كليف الى جانب المؤتمرين واستطاع أن يتغلب على الآراء المعارضة، وان يحصل على موافقة المجلس على مساعدة أولئك المؤتمرين لخلع سراج الدولة عن عرشه واجلاس مير جافير مكانه وحصل المجلس من مير جافير هذا في نظير العرش المرتقب على وعد بدفع تعويضات مجزية للشركة الانجليزية وموظفيها وللجنود الجيش والبحرية وأعضاء المجلس .

قد يبدو ما لقيه الانجليز على يد سراج الدولة في غزوته الاولى ، وما كان محتملاً أن تلقاه تجارتهم من بوار إذا هو ظلّ على العرش مبرراً لمشاركتهم في التآمر عليه .

ولكن لم يكن هناك ما يبرر اتباع كليف سياسة ذات وجهين مع الرجل ؟ كان يكتب لسراج الدولة بعبارات معسولة كانت تنزل السكينة والطمأنينة في قلبه . وفي نفس البريد الذي يحمل تلك الرسالة كان يبعث إلى مستر وطس برسالة يحييه فيها « قل لمير جافير لا تخش شيئاً وإني سأمده بخمسة آلاف مقاتل لا يعرفون التقهقر ، وأكد له أني سأسير إليه ليل نهار وسأقف بجانبه حتى آخر رجل لديّ » .

وكان من المستحيل أن مؤامرة واسعة النطاق كهذه تبقى سراً دفيناً . فقد وصل إلى سراج الدولة ما أثار شكوكه، ولكن أوميشند استطاع بلباقته وكياسته ، وسرعة بديهته ، أن يهدىء من روع الأمير بما كان يخترعه من حكايات وأقاصيص حتى زالت شكوك سراج الدولة، وأوشكت المؤامرة وقد أجيد حبك أطرافها أن تؤتي أكلها حين علم كليف بأن أوميشند يستطيع أن يبقي على أرواح الكثيرين، أو يقضي عليها لا سيما أرواح واطس ومير جافير وسائر المؤتمرين ، ولقد شاء أوميشند أن يستفيد من مركزه القوي ، وأن يملي إرادته ،

فأفصح عن طلباته وحددها بشأن أنف جنيه ثمناً لسكوته وعدم إفشاء سر المؤامرة فضلاً عن مساهمته فيها ، وغضب المجلس لهذا الطلب واعتبر اقدام أوميشند عليه خيانة منه لا تغتفر ، وخشى عاقبة ما قد يؤدي إليه من نتائج وسرت الحيرة في جو المجلس .

ذلك أن أوميشند الذي استطاع أن يكبت عاطفة الكراهية الشديدة التي يكنها لسراج الدولة مغتصب ماله ، الذي جعله لا يملك شيئاً البتة بعد أن كان من سراة كلكتا ، وأن يندس في حاشية الأمير حتى أصبح أقرب المقربين اليه بل صار بمثابة الناصح الأمين له و يأخذ برأيه ويعمل به ، ووصل إلى ما وصل إليه بدهائه ولباقته وكياسته .

وكان في مركزه الجديد عين المتآمرين الساهرة ، وأذنهم السميعة ، ينقل إلى مركز قيادة القوة المتآمرة في كلكتا كل ما يهمها الوقوف عليه . وكان ينفذ كل ما يصدر إليه من هذه القيادة مستغلاً في ذلك حظوته عند الأمير ، وتقربه منه .

دار في رأس كليف كل هذا في سرعة وأدرك خطورة الموقف ، وشاء أن يخرج من تفكيره السريع بحل يحفظ سرية المؤامرة حتى يتم نجاحها .

وكما كان كليف يفكر كذلك كان أعضاء المجلس يفكرون كلٌ على طريقته الخاصة ، فالكل كان يقدر خطورة ذلك الداهية البنغالي . ولهذا استولت على الجميع الحيرة . ولكن كليف تابع أوميشند في تفكيره وشاء أن يخدعه ورأى أن إخداع مثل هذا الرجل جائز . فلا بأس في أن تبذل له الوعود بسخاء ليؤمن جانبه في تلك الآونة الحرجة ، حتى إذا تمّ الأمر ، وتحققت المؤامرة يهمل أمره ، ويكون نصيبه الازدراء ، والتنكر له جزاء استغلاله لحلفائه في مثل ذلك الموقف .

وشرح كليف ذلك للمجلس فاقتنع بوجاهة الفكرة ، ولكنه لم يجد وسيلة لخداع أوميشند الذي كان يصر على أن تضاف مادة الى المعاهدة المعقودة بين مير جافير والانجليز ، وأن يرى بعيني رأسه تلك المادة التي يجب أن تنص على طلباته التي لم تكن تنحصر في الرشوة . بل شاء أن يعطى تعويضاً كبيراً عما لحقه من خسائر من جراء حملة سراج الدولة على كلكتا ، إلا أن كليف لجأ الى طريقة التزوير فأعدّ وثيقتين إحداهما حقيقية ولونها أبيض ، وثانيتهما مزيفة ولونها أحمر . وذكر إسم أوميشند والبند الذي طلب إضافته في الوثيقة الحمراء ثم وجدت

صعوبة أخرى فان الأميرال واطسون لم يشأ أن يوقع الوثيقة الحمراء ، ورأى كليف أن خلو الوثيقة من توقيع الأميرال قد يثير شك أوميشند ، وبالتالي قد يؤدي الى إحباط المؤامرة فلم يتأخر عن تقليد توقيع الأميرال على الوثيقة الحمراء . ويقول جنيج في كتابه عن كليف أن الأميرال وإن امتنع عن التوقيع إلا أنه أباح لمجلس كلكتا أن يقوم بالطريقة التي يراها .

وهكذا تهيأت الظروف للقيام بالعمل الحاسم ، وهرب المستر واطس من مرشد أباد سراً وبدأت قوات كليف تتحرك فكتب الى الأمير بلهجة تختلف كثيراً عما كان يكتب له به قبلاً فذكره بأخطائه السابقة مع الانجليز ، ودعاه الى التحكيم فيما بينهما من اختلاف فى قاسم بازار على أن يكون مير جافير حكماً ، وأعلنه أنه نظراً لقرب سقوط الأمطار ولما كان انتظاره رداً منه قد يحتاج عدة أيام فانه رأى أن ينتظر هو ورجاله رده عند وصولهم على مقربة من مرشد أباد .

معركة بلاسي

جمع سراج الدولة حالاً جميع قواته ، وسار لملاقاة الانجليز . وكان من خطط المؤامرة أنه عندما تواجه جيوش سراج الدولة جيوش الانجليز ينفصل مير جافير برجاله عنها وينضم بهم الى قوات كليف . فلما جاءت اللحظة الحاسمة تغلب على مير جافير خوفه ، ونسي أطماعه والوثيقة التي وقع عليها مع حلفائه ، فتردد وطال تردده الى أن استبدت بكليف مخاوفه من النتيجة لغموض الردود التي كان مير جافير يرسلها إليه على استفساراته دون سبب تأخيره .

وكتب كليف من كاتوه الى المجلس في كلكتا بتاريخ ١٩ يونيه يقول : (يعتريني قلق من جراء قلة الأنباء وغموضها ، فاذا لم يكن مير جافير خائناً ، فان بروده أو ضعف قوته قد يكون سبباً في فشل الحملة ، وإنما أحاول الآن محاولة أخيرة للتأثير على ميرجافير بوساطة أحد البراهمة لينضم إلينا . ولقد اخترت بلاسي لتكون ميداناً للمعركة القادمة ، وذكرت له أنه إذا لم يفعل ما طلبت منه أو لم يقدم دليلاً على حسن نيته في الوفاء بوعده ، فاني لن أعبر النهر) .

وهكذا كان كليف في موقف دقيق ، اذ أنه لم يكن لديه ما يحمله على الاطمئنان الى إخلاص حليفه ، ومهما يكن من شأن كفاءته العسكرية ، أو ندرة ونظام من كانوا تحت إمرته ،

فانه مما لا شك فيه أن انضمام قوات مير جعفر التي كانت تبلغ في مجموعها عشرين ضعفاً لعدد قواته لم يكن بالأمر الهين . وزاد في حرج مركز كليف أنه كان لا بد له من عبور النهر ليلاقي أعداءه فاذا قدر له أن ينهزم فقد كان لا بد له من العودة عبر النهر ، وفي ذلك كارثة مؤكدة إذ لا يحتمل أن ينجو من رجاله في هذه الحالة أحد . وهكذا حدث لكليف ما لم يحدث له من قبل إذ فارقته سرعة بديهته ، وخانته شجاعته ، ازاء المسئولية الخطيرة التي قد تترتب على اتخاذ قرار ما . فعقد مجلساً حربياً وفي هذا المجلس رأت الأغلبية العدول عن الحرب ونزل كليف على رأي الأغلبية . ثم استدرك قائلاً انه لم يسبق له عقد مثل هذا المجلس وانه إذا أخذ بهذا الرأي فانه لن يقدر للبريطانيين أن يسودوا اقليم البنغال يوماً ما . وانفض المجلس وانفرد كليف بنفسه في ظل شجرة وقضى ساعة يفكر وأخيراً تنبهت حواسه القديمة وبرزت صفاته التي لازمته طوال حياته ، فقرر ترك كل شيء لظروفه ، وأصدر أوامره بالاستعداد في الحال لعبور النهر في الغد .

وعبر الانجليز النهر وآووا الى خميلة من أشجار المنجو قرب بلاسي ، ولم يكن بينهم وبين أعدائهم سوى مسافة ميل واحد . وقضى كليف ليله ساهراً لا يغمض له جفن يستمع الى قرع طبول جيش سراج الدولة فاستولى عليه الفزع اذ كان يتوقف على تلك المعركة سواء في حالة النصر ، أم في حالة الهزيمة ، نتائج على غاية الخطورة ، هذه النتائج التي ستقرر بعد بضع ساعات من بدء المعركة .

ولم يكن سراج الدولة أحسن حالاً من كليف إذ كانت أعصابه مهتاجة ، واستبدت به المخاوف وتمكن منه القلق ، وأخذت تتراقص أمام عينيه أشباح ضحاياه ممن قتلوا في الغرفة السوداء . فانعدمت ثقته في قواده وحاشيته ، حتى أصبح يستشعر الخوف من كل من يتقدم اليه ، أو يقترب منه ، كما كان يخشى الوحدة في نفس الوقت ، ولكنه اضطر الى أن يفضل الوحدة فانفرد بنفسه في خيمته تنتابه الهواجس والأفكار .

وطلع نهار ذلك اليوم الذي تقرر فيه مصير بلاد الهند فبعد شروق الشمس بدأت جنود الأمير تنساب من المعسكر متجهة صوب الانجليز وكان عددهم أربعين ألفاً من المشاة مسلحين بالكرات النارية والحراب والسيوف والقوس والنشاب . فانتشرت هذه القوات

في السهل فلأته على سعته ، يحميهم خمسون مدفعاً ضخماً يجر كلاً منها بضعة ثيران بيضاء ويدفعه من الخلف فيل هائل . ومدافع أخرى صغيرة ، يشرف عليها جنود فرنسيون كانوا من الوجهة الحربية أكثر أهمية من أولئك المشاة على كثرتهم . أما الفرسان ، وقد بلغ عددهم خمسة عشر ألفاً من الرجال الأشداء الذين جيء بهم من المقاطعات الشمالية ، كانوا كما لاحظ كليف يختلفون كثيراً عن أهالي اقليم اسكرنات . ولم يكن لديه لصد تلك الجموع والتغلب عليها سوى ثلاثة آلاف رجل منهم ألف جندي انجليزي والألفان الباقيان جنود ، دربوا تدريباً انجليزياً ، ويقودهم ضباط من الانجليز .

وبدأت المعركة . كما يقول كليف « في الساعة السادسة صباحاً بدأوا هجومهم علينا بقذائف مدافعهم الثقيلة ، يصحبها هجوم الجيش برمته . وضغطوا علينا ضغطاً شديداً بضعة ساعات ، وصار موقفنا سيئاً جداً ، إذ كنا محصورين بين الأشجار ، ووراءنا شاطىء ضيق . وكان الرد على طلقات مدافعهم بمثلها مستحيلاً لصعوبة حركة مدافعنا ، ولأنهم كانوا يحيطون بنا على شكل نصف دائرة ، فرأينا أن ننتظر قدوم الليل لنقوم بهجوم عام ينقذنا مما كنا فيه ، وبقينا في مراكزنا صامتين . ولكن حدث عند الظهيرة أن انسحب العدو من الميدان ، وآوى الى معسكراته » . واكتفى سراج الدولة بأن أمر المدفعية باطلاق النار على الانجليز ، ولم يكن الاطلاق محكماً فكانت القذائف تسقط بعيداً عن أهدافها وأجابت مدفعية الانجليز بالمثل ، ولكن قذائفهم سقطت وسط معسكر الأمير فقتلت كثيراً من ضباطه ، وعمت الفوضى وانتشر الذعر . وكان الأمير أكثر من سواه ذعراً ورعباً ، لاسيما بعد أن سقط المطر وأصاب ذخائره بالتلف . وبعد أن مات مير مادان أشد قواد الأمير اخلاصاً له . فلما تقدم راجا دولاب رام وأسر اليه بالتقهقر . وكانت هذه النصيحة خليقة جزءاً من المؤامرة المتفق عليها ، كان سراج الدولة كأنما ينتظر من يدلي اليه بمثل هذه النصيحة فأمر بتنفيذها فوراً . وكان هذا التنفيذ سبباً فيما حل به بعد ذلك من كوارث متتالية . فان كليف انتهز الفرصة وأمر جنوده بالتقدم في الحال ، وساعد على نجاح هذا التقدم أن جنود سراج الدولة لم تكن عندهم رغبة في القتال ، ولا كان النظام سائداً بينهم . وهكذا انتصر جيش كليف على قلة عدده على جيوش الأمير . وكانت الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم ، ولم

يصمد في الميدان سوى الجنود الفرنسيون الذين ظلوا يقاومون حتى الساعة الخامسة مساء. وأخيراً هربوا فيمن هرب. وهكذا لم يجد الانجليز أمامهم سوى العتاد الحربي من المؤن والذخائر التي تركتها قوات الأمير في هربها. ولم يخسر كليف غير اثنين وعشرين قتيلاً وخمسين جريحاً دفعها ثمناً لامبراطورية غنمها لبلاده في تلك المعركة.

لم يقدم ميرجافير أية مساعدة للانجليز خلال المعركة، ولما رأى أن النصر حليفهم وأن الواقعة تنتهي سريعاً على هذا النحو انسحب بالجيش الذي كان تحت امرته من الميدان. وأرسل تهانئه الى حليفه. وفي الصباح ذهب الى معسكر الانجليز على ظهر فيل وهو يتوقع استقبالاً رائعاً. ولكن الذي حدث أن الحراس حين رأوه ورفعوا أسلحتهم لتحيته، ظن أنهم يريدون به شراً وشاء أن ينسحب. ولكنه رأى كليف نفسه يتقدم لملاقاته فترجل عن فيله، وعانق كلا الرجلين الآخر، وحياه كليف بقوله « يشرفني أن أستقبل في معسكري حضرة صاحب العظمة أمير البنغال وبهار وأوريسا ». فارتاحت نفسه واطمأن وأثلج صدره، لا سيما بعد ان طلب منه كليف أن يسير تواً الى مرشد أباد ويباشر سلطته هناك ».

وكان سراج الدولة بعد أن هرب من ميدان القتال قد أسرع في العودة الى مرشد أباد على ظهر جمل سريع، فوصلها بعد أربع وعشرين ساعة، وجمع حوله مستشاريه يتدبر معهم الامر، فأشار عليه أكثرهم حكمة بأن يسلم نفسه الانجليز الذين لن يفعلوا به أكثر من أن يخلعوه من عرشه، أو يسجنوه، فثار لهذه المشورة واتهم المشيرين بالخيانة، وأشار عليه غيرهم بمواصلة الحرب مع الانجليز، ورأى هو وجاهة هذا الرأي، فأصدر أوامره بالاستعداد للحرب، ولكن قواه المعنوية كانت قد انهارت، وقضى على ما بقي منها سماعه نبأ وصول ميرجافير على رأس جيشه، فزاد ذعره، ولم يعد يحتمل تلك الانفعالات النفسية التي أخذت تنتابه، فارتدى ثياباً رثة، وحمل معه كيساً مملوءاً بالجواهر، واتخذ من الليل ستاراً، وتسلل من نوافذ قصره، وصحبه تابعان ونزل ثلاثتهم الى قارب كان ينتظرهم في النهر وركبوه الى مدينة باتنا.

وفي يوم ٢٩ يونيه وصل كليف إلى مرشد أباد على رأس مئتي جندي انجليزي وثلاثمائة

هندي، ونزل في قصر كان قد أعدّه له مير جافير من قبل، وعسكر جنوده في حدائق القصر. وأعدّ الاحتفال بتولية مير جافير على عرش البنغال على عجل، وقاد كليف الأمير الجديد الى (المسند) وأجلسه عليه وأهداه هدية ذهبية، كانت العادة في الهند قد جرت على أن يقدمها الى الامير يوم توليته ذوو المكانة في الاقليم. ثم التفت الى الجماهير التي ملأت جوانب القاعة، وهنأهم بتلك الفرصة الطيبة التي مكنتهم من التخلص من الحاكم الظالم سراج الدولة

والآن وقد تمّ لكليف وحلفائه، تنفيذ خطتهم، وقد بقيت خطوة لا تقل أهمية عما سبقها من خطوات، وهي خطوة اقتسام الغنائم، وتدبير أمر المملكة الجديدة، وعقد المؤتمر الذي كان عليه أن يبت في هذه الامور في منزل جاجيت سيت الممول المقيم، وحضر هذا الاجتماع كل من دعوا اليه. وكان كل منهم مطمئناً الى تحقيق رغائبه، لا سيما وقد سبق أن اتفق على قرارات هذا المجلس مقدماً. وكان أكثر هؤلاء الاعضاء ثقة واطمئناناً هو أوميشند. وذلك لما كان يلقاه من كليف من مجاملة وعطف. فقد كان هذا يسرف في احتفائه به خداعاً ومداراة، حتى تمّ له الفوز والانتصار. وكان أول عمل يجب اجراؤه هو قراءة الوثيقة التي كانت قد أبرمت في كلكتا، فأخرج مستر ميكرفتون الموظف بالشركة الانجليزية الوثيقة البيضاء فتلاوتها، وحينئذ مال كليف على أذن مستر ميكرفتون قائلاً بالانجليزية «جابه أوميشند بالحقيقة» فتحول ميكرفتون الى أوميشند وقال له باللغة الهندستانية (ان الوثيقة الحمراء كانت خدعة يا أوميشند. وليس لك أن تؤمل شيئاً). فهوى أوميشند بين أتباعه فاقد الحس والشعور. ثم أفاق فيما بعد، وقد اضمحلت قواه العقلية الى حدّ كبير وما زالت تضمحل حتى جنّ الرجل. وقابله كليف يوماً ما في طريقه فتأثر بما رآه منه، وأشار عليه بأن يحج الى الاماكن المقدسة في الهند لعله يسترد صحته وقواه ووعده اذا ما تمّ له ذلك بتعيينه في أحد مناصب الدولة الكبرى. ولكن أوميشند لم يعش غير بضعة أشهر كان خلالها يأتي أعمالاً مضحكة تثير الشفقة في أقسى القلوب وبعد ذلك مات.

ولم يكن أوميشند الضحية الوحيدة، للثورة فان سراج الدولة كان الضحية الثانية. فقد حدث أنه وقع أسيراً في يد مير جافير عقب هربه بأيام قلائل، فأتى بنفسه على الارض

مذعوراً من قدمي ميرجافير مسترحماً ، مستغيثاً ، وهو الذي ما كان للرحمة في قلبه مكان وكاد مير جافير يرحم أسيره ، لولا تدخل ابنه ميران الذي كان شاباً في السابعة عشرة من عمره ، وكان قد نشأ على غرار سراج الدولة وكان يتصف بكثير من صفاته ، فطلب من أبيه أن يكل اليه أمر الأسير ، وأجابه الأمير الجديد الى طلبه ، فقيد سراج الدولة الى غرفة سرية ، حيث وافته اليها زبانية الموت والعذاب وعلى رأسهم ميران .

الثروة

ومن ثمّ بدأت الثروة تنهال على الشركة وموظفيها وكانت أول رسالة أرسلت إلى قلعة وليم عبارة عن مبلغ ثمانمائة ألف جنيه كلها من العملة الذهبية وكان الاسطول الذي حمل هذه الرسالة مكوناً من مائة مركب ترفرف عليها الأعلام ، وتصدح فوق ظهورها الموسيقى ، كأنما هي موكب النصر ، وكان هذا المال سبباً في بعث الحركة والنشاط في مدينة كلكتا بعد أن كانت مهجورة قبل انتصار كليف ، وانتعشت التجارة في تلك المستعمرة الانجليزية من اقليم البنغال . وظهرت آثار النعيم والترف على كل بيت انجليزي . أما كليف نفسه فقد خصه من هذا المال مبلغ يتراوح بين مئتي وثلثمائة ألف جنيه ، ولو شاء زيادة عن ذلك لنال فلم يكن هناك ما يحول بينه وبين تحقيق أية رغبة يبديها في هذا الشأن . وتوالت الهدايا والهبات من حكومة ميرجافير على الانجليز الذين كانوا كأنما عثروا على كنوز كانت محجوبة من قبل .

ولقد أصبحت تلك العلاقات التي قامت بين ميرجافير وكليف موضوع اتهامات أثيرت في مجلس العموم البريطاني ، ووجهت فيها الى كليف تهمة الرشوة واستغلال المركز الذي صار فيه ، والسرقة بالإكراه من حليف ضعيف ، على أنه من انصاف الرجل أن نقول إنه لم يكن موظفاً رسمياً يفرض مشيئته على الناس ، بل كان موظفاً في شركة تجارية ، وان الهدايا التي قدمت اليه كانت تجيزها العوائد المتبعة في بلاد الهند في ذلك الحين ، وان لم تكن معروفة في انجلترا . ولو كان أحد الذين اتهموه بتلك التهم في مثل مركزه ورأى كنوز بلاد البنغال تنفتح تحت قدميه في مرصد أبوابه ، لعلم كيف كان كليف قنوعاً حين ارتضى لنفسه ما وصل اليه . فضلاً عن ان الرجل كان صريحاً فلم يخف من الناس ما وصل اليه بل جاهر دائماً بأنه قد أصاب من

ثروة الأمير المهزوم ما جعله ثريًا . وهذا يدل على أنه كان يعتقد أنه لم يأت سوءًا لأنه لم يمس مصالح الشركة، بل زاد من الأرباح التي كانت تجنيها . ولا هو فرط في حقوق وطنه . بل كسب له أقاليم جديدة واسعة وغنية وآهلة بالسكان . وإنما قبل هدايا في أقطار تبيح تبادل الهدايا كما وإنه لم يكن هناك نص في دستور انجلترا يحرم عليه ذلك . ولكن ما كولي يرى أن كليف كان مخطئًا على كل حال لأنه كان قائدًا ، والقائد خادم لحكومته وليس لسواها . وتبعًا لذلك فكل هدية تقدم إليه يجب أن تكون عن طريق حكومته، أو على الأقل تكون هذه الحكومة على علم بها وتوافق عليها ، وتنطبق هذه القاعدة حتى على الهدايا التي لا تعدو أن تكون نيشانًا أو وسامًا . وأن قبول الضباط لمثل تلك الهدايا المغرية إذا تم بغير علم ولا موافقة الحكومة التي يتبعونها إذا صار ذلك قاعدة معمولاً بها ، فإن الأمر كان يفسد والفوضى تعم . حقًا لم يكن هناك قانون يحول دون قبول الهدايا من الحلفاء والأصدقاء . ولكن المنطق وسلامة الذوق كانا يقضيان على كليف بعدم قبول هدايا ميرجافير .

واطمأن ميرجافير الى عرشه والى انه لن تستطيع يد أن تمتد اليه بسوء الا اذا تخلت من حمايته تلك اليد التي رفعته .

وكان ميرجافير رجلا حسن الأخلاق حميد السيرة لكنه لم يكن على شيء من الصفات التي تكسبه محبة الشعب واحترام الأمراء ، لا سيما وقد أصبح انتقاد أولي الأمر ميسورًا وخلعهم جائزًا بعد تلك الثورة الماضية ، فلقد كان ميرجافير نفسه وليد الثورة . ولهذا لم يكن عجيبًا أن تثور النفوس من جديد تبعًا لخلاف وجهات النظر والعقائد ، وان يتولى نواب مقاطعة أود زمام هذه الثورة ، وان يتحرج الموقف ويصبح جو السياسة في اقليم البنغال ملبدًا بالغيوم . ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تحمي ميرجافير من هذه الأعاصير ، وتعيد الأمور الى نصابها سوى قوة كليف وكفاءته . ولكن الذي حدث انه في هذه الظروف العصيبة وصلت سفينة الى كلكتا تحمل بريدًا من مقر الشركة في انجلترا يبدو انه كتب قبل أن تصلهم أنباء معركة بلاسي وفيه قرار مديري الشركة أن يتولى السيطرة على ممتلكات الشركة في اقليم البنغال حكومة مكونة من أشخاص لم يكن كليف واحدًا منهم وكان أعضاء الحكومة الجديدة الذين وقع عليهم الاختيار لا يتصف واحد منهم بأية قدرة أو كفاءة

لحمل أعباء تلك المسؤولية الكبيرة ، وأظهروا شعوراً طيباً نحو كليف فتضامنوا في التنحي عن قبول هذا التعيين متحملين مسئولية مخالفة أوامر الشركة، وسلموا كليف مقاليد الامور يتصرف فيها كيف يشاء .

ولما وصلت الى مقر الشركة في لندن أنباء انتصار كليف الباهر في بلاسي عدّل المديرون قرارهم في الحال وأصدروا أمرهم بتعيين كليف حاكماً عاماً لممتلكات الشركة بالبنغال مع تقديم تقديرهم وثنائهم لما قام به من جلائل الاعمال . وبهذا أصبحت سلطة كليف مطلقة وكانت في قوتها كل ما كان دوبليه يتمتع به في الجنوب . وكان ميرجافير يعتبره سيده ومنقذه. فقد حدث إنه عنف مرة أحد كبار الاشراف لان أتباعه كانوا قد اشتبكوا في عراك مع بعض جنود الشركة من الهنود وقال له خلال حديثه « هل أنت في حاجة لان أقول لك من هو الكولونيل، وبأي قدر قد حباه الله من التكريم والتعظيم ؟ » . فنفى الشريف عن أتباعه تهمة اعتدائهم على أتباع كليف . ويقول ماكولي إن كليف كان ينظر الى الهنود والاوربيين بمنظار واحد، فالانجليز كانوا يرون فيه القوة التي تستطيع أن تكره ميرجافير على تنفيذ تعهداته له وميرجافير كان يرى فيه حامي ملكه من شعبه المتمرد ، وجيرانه من الأمراء الطامعين والذين كانوا يتحينون له الفرص .

وأرسل كليف فورد أحد قواده الى شمالي اقليم السركارات حيث كان للفرنسيين نفوذ كبير، وكان لابد من اجلائهم عنه . وأثبت نجاح حملة فورد أن كليف كان موفقاً في اختياره لقيادتها .

وبينما كان جزء كبير من قوات الانجليز في البنغال منهمكاً في الحملة سالفة الذكر ، إذ هدد الحدود الغربية لذلك الاقليم خطر جديد عظيم الشأن . وتفصيل ذلك أن المغول العظيم كان سجين قصره في دلهي . وكان أكبر أبنائه هذا علاَّم ألعوبة في يد كل من يريد تسخيره لأغراضه، فكان مرة أداة في أيدي المهراتا، ثم أصبح فيما بعد صنيعة للانجليز . وكان الذين يسخرونه في تحقيق أغراضهم إنما يفعلون ذلك لما يتمتع به الأمير من احترام الشعب الهندي كله له. ولهذا السبب نفسه إستماله أمير أود إليه ، فتجمع له تحت لوائه جموع كبيرة من

المغامرين المحاربين من جميع أنحاء البلاد ، وبهذا تألف تحت إمرته جيش كبير قوامه أربعون ألف رجل يختلفون بعضهم عن بعض في الجنس والدين واللغة والعادات ، ووضع الأمير الخطة التي يستطيع بها خلع ذلك الرجل الذي استند الى حراب الانجليز في تولي عرش البنغال ليتولى مكانه أميراً على أقاليم البنغال ، وأوريسا وبيهار .

وعلم ميرجافير النبأ ففزع واستبد به الخوف لما سمع ، ورأى أن الحل الوحيد لتلافي ذلك الخطر الدائم هو عقد محالفة مع شاه علام ولو اضطره الأمر الى دفع مبلغ جسيم . وكان ذلك الخاطر هو نفس الخاطر الذي كان دائماً يخطر على بال من جلسوا قبله على عرش البنغال إذا ما هددهم خطر على الحدود ، ذلك لأن سكان هذا الاقليم كانوا دائماً محبين السلم ، ويخشون الحرب ، ويدرؤون خطرها بأي ثمن ما دام هذا الثمن لا يتعدى أن يكون مالاً . ولكن كليف سخر من هذا الخاطر وكتب لميرجافير « إذا أنت فعلت ذلك اجتمع عليك جيرانك جميعاً وهددوك نفس التهديد ليحصلوا منك على جميع ما لديك من مال حتى لا يبقى لديك شيء في خزائنك ، وأنا أرجو يا صاحب العظمة أن تثق في حلفائك الانجليز وفيما لديك من جنود » .

وبمثل هذا الاسلوب كتب كليف الى حاكم باتنا بأن يقاوم الى آخر رجل لديه ، وأن يطمئن الى أن الانجليز قوم أوفياء وأقوياء ، وأنهم لن يتأخروا عن مد يد العون الى أصدقائهم في الشدائد وأنهم لا يتوانون عن خوض غمار الحرب في سبيل ما سبق لهم أن حاربوا من أجله .

ونفذ كليف وعده ، ذلك أن شاه علام حاصر باتنا وكاد على وشك اكتساحها حينما بلغته أنباء زحف كليف صوب المدينة . ومع أن القوات الانجليزية لم يتجاوز عددها أربعمائة وخمسين أوروبياً ، وألفين وخمسمائة وطني ، إلا أن ما كان قد اكتسبه من صيت في الحروب جعل اسمه مصدر رعب وفزع ؛ فما لاحت طلائع الجند حتى ولى المحاصرون الادبار وحاول الفرنسيون المتطوعون في جيش الأمير شاه علام إقناع عمره بالثبات ، ولكن محاولتهم هذه ذهبت أدراج الرياح . وبمثل هذه السهولة تبدد ذلك الجيش الضخم الذي كان يهدد ، وقد أباد وسبب لأميرها كثيراً من القلق والفزع .

وعاد القائد الأمير .ن قلعة وليم وبهذا تبدأت عناوت مير جافير ثقة وفرحاً وأهدى منقذه هدية سنيـة . ذلك أن الشركة الإنجليزية كانت تدفع إيجاراً لأمير البنغال عن تلك المساحات الشاسعة التي كانت تشغلها جنوبي كلكتا ، وكان هـذا الإيجار لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه سنويـا . ثم بدأ بال مير جافير من ناحية شاه علام ، ورأى أن يقدم لكايف هدية مناسبة لم يجد خيراً من أن يوقف ذلك الإيجار على كايف مدى حياته .

وقبل كايف هذه الهدية ووافقت ادارة الشركة على هذا القبول، ولكن صداقة مير جافير لم تدم طويلاً، فقد كان يساوره شعور قوي بأن الحليف القوي الذي أعانه على بلوغ الامارة قد يهدمه في أية لحظة ، وإنه بهذا الوضع كان تحت رحمة كايف، وساءه أن يكون مهدداً هكذا باستمرار، فأخذ يبحث عن حليف جديد يدرأ به خطر الإنجليز إذا هدده منهم خطر ما في يوم من الأيام ، ولم يفكر أبداً في أن يكون حليفه من الهنود لانه كان يعتقد كل الاعتقاد أن الهنود ما كانوا ليجرؤوا يوماً على الوقوف أمام كايف، إذ كانوا يرهبونه ، وكذا لم يفكر في الإستعانة بالفرنسيين ، لأن قواتهم في أقليم البنغال كانت قد تلاشت فاتجه ببصره الى الهولنديين الذين كانوا يتمتعون بصيت ذائع لم تخدشه بعد الوقائع . فهم كانوا قد استولوا على مستعمرات الأسبان والبرتغال أثناء حروب الاستقلال واحتكروا تجارة الشرق الأقصى وجزر الهند الشرقية التي احتلوها، وكانوا قد استقروا في امبوينا في سنة ١٦٢٣، وفي سليبز في سنة ١٦٦٣ ، وفي ملقه سنة ١٦٤١ ، وفي جزيرة سيلان في سـنة ١٦٥٨، وكانت عاصمة الامبراطورية الهولندية في الشرق الأقصى في باتافيا بجزيرة جاوة . ولم تكن أنباء هزيمة هولندة في أوروبا قد بلغت الهند بعد ، فاتصل مير جافير بمقر الشركة الهولاندية في شينسورا واتصلت هذه الشركة بولاة الأمور في باتافيا بإرسال حملة لا تقل في قوتها عن القوة الإنجليزية الموجودة في اقليم البنغـال . وسر ولاة الأمور في باتافيا بهذا العرض فقد كانوا يشكون من انفراد الانجليز بتجارة الملح وقصر استخدام من يقومون ببعض الأعمال الملاحية في الهوجلي على الانجليز، وقيام هؤلاء بتفتيش جميع المراكب القادمة الى الهوجلي، ورأوا فيه فرصة لخدمة وطنهم وأشخاصهم على السواء . فقد كانوا يطمعون في مثل الثراء الذي أصابه الأنجليز في تلك البلاد، ولهذا جهزوا حملة قوية حملتها سبع سفن كبيرة سارت بها من جاوه حتى بلغت

الموجلي فجأة في اكتوبر سنة ١٧٥٩. وكان عددها خمسة آلاف مقاتل نصفهم من الاوروبين. وكانت الظروف ملائمة للهولنديين ، إذ كان جزء كبير من قوات كليف في اقليم الكرنات لمحاربة الفرنسيين وكان ما لديه من قوات لا تستطيع مكافحة هؤلاء الغزاة وبلغه أن ميرجافير رحب سراً بالهولانديين. وكانت هناك صعوبة أخرى تواجه كليف هي أن هولاندة كانت صديقة لانجلترا في أوربا ، وذلك في وقت كانت بريطانيا فيه في حرب مع فرنسا ، وكانت تحرص كل الحرص على ألا تحارب هولانده في نفس الوقت . وكان كليف يخشى أن يشتبك مع هذه القوات الهولندية فيغضب ولاة الأمر في لندن فلا يوافقون على عمله ، بل قد يتعرض من جراء مثل هذا العمل للحساب والعقاب ، إلا أنه كان مقتنعاً بأنه لو سمح لهؤلاء الهولنديين بالمرور في النهر فبلغوا مقر الشركة التي يتبعونها في شنسورا فان ميرجافير سيلتقي بنفسه حتماً بين أحضانهم ويصبح الموقف خطراً على السيادة الانجليزية في اقليم الشمال كله . ولهذا رأى أن يتخذ قراراً سريعاً وحاسماً على ضوء هذه المعلومات دون أي اعتبار خارجي ووافقه ضباطه على ما ذهب اليه .

* * *

وحاول الهولنديون أن يمروا بالقوة وكانت كل سفينة من السفن التي تحملهم مجهزة بستة وثلاثين مدفعاً ، وكانت بينها سفينتان مجهزة كلاهما بستة وعشرين مدفعاً . ولكن الانجليز كانوا يحيطون بهم براً وبحراً ، إلا أن العدو كان متفوقاً في القوة عدداً وعدة . ومع هذا التفوق استطاع الانجليز أن ينتصروا على الهولنديين وأن يستولوا على سفنهم بعد أن قتلوا وأسروا معظم رجالهم من الاوروبيين . وعقب هذا الانتصار تقدم الانجليز نحو شنسورا بامتثالات بسرعة . وأعلن كليف شروط الصلح في شنسورا . ومن هذه الشروط أن يتعهد الهولنديون بألا يقيموا استحكامات دفاعية في تلك المدينة ، وألا يجندوا أكثر من القوة اللازمة لحفظ النظام في مؤسسات الشركة ، وانهم في حالة مخالفة أحد هذه الشروط يكونون قابلين للعقاب الذي ينزله بهم الانجليز .

العودة الى انجلترا

بعد هذا النصر الذي توج اسم كليف في انجلترا بإكليل الغار قبل أن يذهب هو اليها حتى قال الوزير العظيم بت عنه في مجلس العموم : (لقد فقدنا المجد والشرف والصيت الطيب في كل مكان ما عدا الهند لأن العناية الالهية قد وهبت الوطن هناك قائداً عبقرياً فذاً لم يسبق له أن درس فنون الحرب . ومع ذلك فقد هاجم بحفنة من الرجال جيشاً هائلاً دون خوف أو وجل هذا الرجل الذي حافظ على سمعة وطنه وزاد في مجده وكانت قوة عزمه مما يندهش له أعظم القواد الحربيين وحضور بديهته مثار اعجاب الجنود) . مما بلغ كليف وهو في الهند فلأه بالرضى عن نفسه ، ولكن هذا الرضا لم يبلغ مبلغ الغرور .

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٧٦٠ غادر كليف أرض الهند في طريقه الى انجلترا وعند وصوله الى لندن لقي من الترحيب الشيء الكثير . وتوالت عليه الهدايا والهبات إلا أنه كان يطمع في أكثر مما رأى ، فاذا أخذنا في الاعتبار سن كليف عند وصوله إذ كان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ورتبته في الجيش وقتذاك ومنبته المتوسط الذي منه درج لوجدنا ان ما قوبل به من حفاوة وترحيب كان عيناً عظيماً ، فأرلندا منحته لقباً أصبح به من أشرافها ، وفتح هذا أمامه أبواب الأمل في أن يصبح من أشراف انجلترا نفسها ، لاسيما بعد أن أحسن الملك جورج الثالث — الذي اعتلى عرش انجلترا حديثاً — استقباله ، وأحاطه الوزراء بالتكريم والتقدير .

وكان كليف قبل وصوله الى انجلترا قد أرسل اليها ثمانين ومائة ألف من الجنيهات عن طريق الشركة الهولندية ، وأكثر من أربعين ألفاً من الجنيهات عن طريق الشركة الانجليزية ، ومبالغ أخرى لا تقل أهمية عن هذه عن طريق مؤسسات أخرى . وفضلاً عن كل هذا المال فقد حمل معه من الماس والجواهر قدراً لا يستهان به ، وما كان يملكه في بلاد الهند من أراض وقدر بنفسه ثمنها بمبلغ سبعة وعشرين الف جنيه ، كل هذه الثروة التي لم تتح فعلاً لرجل بدأ معدماً كما بدأ كليف ، ساعدته ومكنته من أن يصرف المال عن سعة وبذخ حتى بذ أشراف انجلترا في هذا الباب .

وكان كليف باراً بأهله فقد أرسل عقب معركة بلاسي — التي كان انتصاره فيها مفتاح كنوز ثروته — الى أخواته عشرة آلاف جنيه، وأعان كثيراً من الاصدقاء والاقرباء الفقراء، وأمر وكيله بأن يدفع ثمانمائة جنيه سنوياً لابويه، وأن يشتري لهما عربة تجرها الجياد، كما رتب خمسمائة جنيه سنوياً لرئيسه السابق لورنس، الذي كانت أحواله المالية على درجة كبيرة من السوء. وبلغ ما أنفقه كليف في هذا السبيل خمسين ألفاً من الجنيهات.

وأكثر كليف من شراء الاراضي واستطاع أن يصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني عن شيروزبري، ورغم ذلك لم يلعب دوراً هاماً في سياسة بلاده. ففي أول عهده بالسياسة اتصل بالمستر فوكس، ثم أعجب بعبقرية ونبوغ المستر بت. وأخيراً انضم الى جورج جرنفيل في عام ١٧٦٤. وهكذا تنقل في أهوائه السياسية.

ولم يصب كليف أي نجاح في السياسة البريطانية رغم أنه كان محبوباً من جميع مواطنيه من الملك ومن الوزراء ومن دونهم من أفراد الشعب، ذلك لان ما كان ينعم به من ذيوع صيت ومجد وتقدير انما كان أساسه ما ناله من نجاح في بلاد الهند، سواء في ميدان السياسة أم في ميدان الحرب. ولو كان رجل غير كليف لقنع بما أحرز من ألقاب، وما نال من ثراء، وما نعم به من ترف وسعادة من أهله وأحبائه، ولكنه كان رجلاً تعوّد الكفاح والحركة، فأخذ يرقب عن كثب ما يرد من أنباء اقليم البنغال كأنما كان يتنبأ بأن الحال هناك ستدعوه حتماً يوماً من الايام الى تولي قيادة الأمور في تلك البلاد النائية.

الحال في الهند

وكانت الأخبار تترى عن فساد الحكم والادارة في اقليم البنغال واضطراب الامور فيه. ولعل ذلك كان راجعاً الى أن مركز ادارة شركة الهند الشرقية في لندن كان بعيداً عن ميدان أعمالها بعد أن حال بينها وبين مراقبة موظفيها في كلكتا. فجهلت كل شيء عنهم وعن تصرفاتهم لانه لم يكن يهمها الا ضمان الأرباح التي تعود على المساهمين

واستفاد هؤلاء الموظفون من جهل رؤسائهم بأحوالهم، فاستغلوا التجار الوطنيين والاهالي استغلالاً معيباً، ناسين كل اعتبار، الا أن يجمعوا الأموال الطائلة في أقصر مدة ممكنة حتى اذا عادوا الى وطنهم عادوا أثرياء. ولم يقفوا عند هذا الحد، بل بلغ بهم الامر أن تدخلوا في

سياسة الحكم بإعانة بعض الأمراء على بعض، بل خلعوا ميرجافير ذلك الأمير الذي أجلسه كليف على عرش البنغال وأجلسوا ميرقاسم محله لقاء جعل معين ومزايا وعدوا بها، ولكن هذا الأمير كان ذا شخصية قوية وإرادة حازمة وروح تميل إلى الاستقلال فلم يشأ أن يذيب أفراد شعبه في بوتقة الظلم ليكون منه سبيكة خالصة من الذهب يقدمها إلى أولئك السادة، لأنه رأى أن هذا الشعب قد استبد به البؤس، واشتدت به الفاقة، ولم يعد في ضرعه قطرة من اللبن، ذلك الشعب الذي بدأ أفراده يهربون إلى الجبال خشية الاضطهاد، وهرباً من الاستعباد.

وأسف حضرات الموظفين لتولية مير قاسم لأنه لم يعطهم ما طلبوا ولا حقق لهم ما رغبوا فيه، فسرعان ما خلعوه عن عرشه، وأعادوا ميرجافير مكانه، ولم يكتف موظفو الشركة في إقليم البنغال بفرض سلطانهم على الأمراء ومن في حكمهم، بل عمدوا إلى بث وكلائهم ومندوبيهم في القرى لإكراه الناس على أن يبيعوا لهم بضائعهم وحاصلاتهم بثمن بخس، وعلى أن يشتروا ما يؤمروا بشرائه منهم بثمن عال. وكان أولئك المندوبون والوكلاء يستمدون في عملهم هذا السلطان المخول لهم من إدارة الشركة المحلية والتي كانت تعتمد في إظهار قوتها وجبروتها على قواتها المسلحة، ولو لقي الهنود هذا العنت والاضطهاد من أمرائهم لثاروا عليهم وخلعوهم من عروشهم كما كانوا يفعلون قبلا. أما والذين كانوا يفعلون بهم هذا من الانجليز فقد كان الأهالي يؤمنون بأنهم قوم لا يمكن أن ينالوا بسوء، أو يسدى إليهم نصح حتى قوي هذا الاعتقاد عند الهنود فأصبحوا يرون أن الانجليز ليسوا من البشر إنما هم فئة من الجن. وكثرت حوادث الهرب. فلقد كان الهندي يهرب من الانجليز كما كان يهرب من المرابين إلى الجبال الموحشة، والغابات المسبعة، لعله يجد في جوار سباع الفلاة أمناً لا يجده في جوار أولئك المستعمرين، فكانت تصل إحدى القرى أنباء وصول موظف انجليزي حتى يبادر أهلوها إلى إخلائها فوراً، فإذا دخل الرجل القرية وجدها بلقعاً يباباً.

وتسرب الفساد من إدارة الحكم إلى الجيش نفسه فالضباط أصبحوا هم الآخرون يرفلون في ثياب الترف والنعيم، ويتمتعون بكل ما يستطيعون الحصول عليه من لذائذ وطرائف وتفشى بينهم روح التمرد والعصيان. وانتقلت هذه العدوى إلى الجنود الأوروبيين منهم والهنود، وكثرت المؤامرات وعمت الفوضى والاضطراب بلاد الهند وقل إيراد الشركة فقلقت

الخواطر في لندن لهذه الحال وزاد في قلقها توارد الأنباء عن الاخطار التي كانت تهدد حدود تلك البلاد .

وأخذت الأنظار تتجه الى كليف الذي كان غيابه عن اقليم البنغال خمس سنوات سبباً في كل ما حلّ به من سوء، ودارت على الألسنة عبارة أن كليف وحده دون سواه هو القادر على اعادة الأمور الى نصابها في الامبراطورية التي أوجدها .

وظهر هذا الرأي واضحاً وصريحاً في الجمعية العمومية التي عقدها مساهمو شركة الهند الشرقية وأجمع الكل عليه، ونادى المنادون بأنه يجب تناسي ما نسب الى الرجل ، وان يتمتع سعه على القيام بهذا العمل .

وقبل كليف في ذلك الاجتماع أن يذهب الى اقليم البنغال، وان يصلح من شأنه، وان يعمل على زيادة أرباح الشركة ، ولكن على شرط أن يتخلى مدير الشركة (صوليفان) عن منصبه، وكان هذا منه تحدياً ظاهراً لغريمه القديم ذي السلطان القوي والنفوذ الكبير . ولكن الحاجة الى كليف حدت بالمساهمين الى إجابة طلبه ، وذلك بإعادة انتخاب مجلس ادارة الشركة وجاءت نتيجة هذا الانتخاب مرضية لكليف . فعين وكيلاً للشركة وقائداً عامًّا للممتلكات البريطانية في أقليم البنغال .

تطهير

في هذه الظروف سافر كليف الى الهند للمرة الثالثة والأخيرة ، فبلغ كلكتا في مايو من عام ١٧٦٥ حيث وجد أن ادارة الحكم كانت في واقعها أكثر فساداً مما سمع عنها ، فان مير جافير كان قد مات عقب وفاة ولده ، واستهتر موظفو الشركة بأوامر رؤسائهم البعيدين عنهم كل البعد ، والجاهلين بشئونهم كل الجهل ، تلك الاوامر التي كانت تحظر عليهم قبول هدايا من الأمراء الوطنيين ، وشجعهم على هذا الاستهتار ، جشعهم للمال والربح . فأقدموا على عرض عرش البنغال للمزايدة ، وتقدم إليهم من دفع لهم أربعين ألف جنيه ثمناً لذلك العرش تقاسمها تسعة من ذوي النفوذ في الشركة ، وارتقى العرش ثمناً لهذه الصفقة طفلٌ من سلالة الأمير الراحل وكان كليف قد بلغته أنباء هذه المساومة وهو في طريقه الى مقر عمله فاستاء لما سمع، وزاد استياؤه حينما رأى وعلم ، فكتب الى صديق له في إنجلترا يقول (وأسفاه لما

أصاب سمعة الانجليز ، فإني أخشى أن لا أستطيع إصلاح ما حلّ بشرف الشعب البريطاني واني أشهدك وأشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : أني جئت هذه البلاد وضميري نقي لا ترقى اليه شائبة ، وأني عزمت على أن أبيد هذه المساوىء التي نخرت في كيان البلاد أو أهلك دونها).

واجتمع مجلس ادارة فرع الشركة في كلكتا بناء على دعوة كليف الذي أعلن الأعضاء خلال ذلك الاجتماع بعزمه على أن يقوم بعملية تطهير واسعة ، وأنه سيستعمل في هذه السبيل كل سلطة خولة له ، سواء أكانت هذه السلطة مدنية أم عسكرية . وثار أشد الأعضاء جرأة ، وأبلغهم قحة ، وأسودهم صفحة ، لهذا القرار ، ولكن كليف أسكته بقوله (أتريد أن تعترض على الحكومة الجديدة وسلطانها ؟). ولكن الثائر المحتد اعتذر وجلس متخاذلاً واسودّت وجوه إخوانه وتملكهم حزن عميق ولم يستطع أحد منهم أن ينطق حرفاً .

ونفذ كليف وعده ، ففي خلال الثمانية عشر شهراً التي أقامها حاكماً بأقاليم البنغال أحرز نجاحاً أي نجاح في تنفيذ مهمته التي جاء الهند من أجلها ، وكانت تلك الفترة من حياته أسعد أيامها ، ظل يذكرها بالفخار حتى أخريات أيامه .

وموضع الفخار أنه كان يستطيع أن يضاعف ثروته خلال تلك الفترة بأن يغمض عينيه عما كان يأتيه موظفو الشركة مع غصب ودبغ مسالم لا حول له ولا قوة من استغلال ، بل واستنزاف موارده ، فذلك الشعب الذي كان يجهل أين تقع تلك البلاد التي نكبته بارسالها إليه أولئك المضطهدين القساة . ولكنه لم يشأ أن يبيح لنفسه ما جاء لتحريمه على سواه . وكان يعلم أنه في هذا التحريم سيصطدم برغبات بني جلدته من المغامرين الجشعين ، وأنه سيتعرّض لثورة هائلة يثورونها عليه إذ فوّت عليهم جمع أكبر ثروة مستطاعة في أقل مدة من الزمن . كان الرجل يعلم كل هذا فأعدّ للأمر عدته ، رغم أن النجاح كان يبدو في أول الأمر مستحيلاً ، ولكن العوائق أخذت تنهار الواحدة بعد الأخرى أمام شجاعته ، وقوة إرادته ، فمنع قبول هدايا الهنود ، وحرّم على الموظفين الاتجار . وأحس كليف استياء هؤلاء وغضبهم لهذا فأعلن في حزم ما يتطرق اليه شك في أنه إذا لم يجد في حامية قلعة وليم القوة التي تكفيه لتنفيذ أمره فإنه سيأتي بتلك القوة من جهة ما ، وأتبع القول العمل فطرد الذين

أصرّوا على مقاومته ، واستبدل بهم غيرهم ، فلما رأى الباقون ما حلّ بالثائرين استسلموا لأمره ، ورضخوا لمشيئته ، وبهذا استتبّ له الأمر في أقليم البنغال .

ولكن كليف كان يعلم أن قوته الشخصية هي التي بددت تلك المساوىء التي كانت البلاد تئن منها وترزح تحت أثقالها ، وأنه من المحتمل أن تعود الى سابق قوتها إذا ما هو ترك مركزه هذا لسبب من الأسباب ، ورأى من الخير استئصال أسباب العلة .

العلاج

فان الشركة كانت قد جرت على منح موظفيها مرتبات ضئيلة لا تكفل لهم الحياة الهادئة أو تضمن لهم الراحة والرفاهية ، وهم الذين تركوا بلادهم وارتضوا العمل في ذلك الجو المتناقض الذي لم يتعودوه في أوطانهم . وكان طبيعيًّا أن أي رجل متوسط الكفاءة أو المواهب لا يرضى مثل هذه الظروف إلاّ إذا كان قد رسم لنفسه خطة ينتهجها إنتجاعاً للرزق وطلباً للمال .

وعوّل كليف على أن يفتح لأولئك الموظفين باباً للرزق يدر عليهم ربحاً طيباً حلالاً يغنيهم من قبول هدايا الأمراء ، وفرض إراداتهم على التجار والوسطاء ، سواء أكان ذلك في البيع أم الشراء ، ولا يدعهم ينتظرون عبثاً من أولي الأمر في لندن زيادة مرتباتهم ، وهو أبغض المأمول عند أولئك المديرين . وفكر الرجل طويلاً في أمر (الملح) وكوّن (شركة الملح) التي كان لها احتكار تجارة الملح في الأقليم كله ، وساهم فيها كبار الموظفين بمبالغ تتناسب مع درجاتهم وكانت الأرباح التي تعود عليهم من أسهمهم تتفق وما اكتتبوا به . وقال كليف في هذا الصدد (ان المزايا التي تعود على المساهمين من تأسيس هذه الشركة والتي لها مطلق الحرية في احتكار هذه المادة هي أكبر حائل يمكن أن يحول دون قبول هدايا الوطنيين من الهنود ، ثم هي لا تضير شركة الهند الشرقية بشيء ما .)

ومهما يكن فان انشاء كليف شركته هذه فإنها كانت تتعارض مع الأمر الاداري الذي صدر من مركز الشركة الرئيسي في لندن في ٨ فبراير سنة ١٧٦٤ خاصًّا بتحريم الاتجار في بعض المواد ومنها الملح على الموظفين . فاتهمه أعداؤه ثم اتهمه التاريخ بأنه خالف أوامر الشركة ونكث عهده الذي عاهد ادارة الشركة عليه ، وانه بدلا من أن يقضي على دابر اتجار موظفي

الشركة لحسابهم الخاص كما كان مفروضاً فيه عند مجيئه الى كلكتا اتقاء هذا الاتجار ووضعه في أركانه . ويرى ماكولي ان احتكار تجارة الملح كان مقصوراً على الحكومات المختلفة في بلاد الهند قبل أن يوله كليف وأنه بقي كذلك أمداً طويلاً بعد مماته، وان كل ما فعله الرجل لا يعدو أن يكون فتحاً لباب من الرزق لموظفيه يزيد من رواتبهم قليلاً قليلاً . ولكن هذه الزيادة منتظمة وثابتة، لأنها تجعلهم مطمئنين الى مستقبلهم، فيسيرون في عملهم بالاخلاص ويكرسون له جهودهم ووقتهم فيزداد نجاحاً وتعود فائدة ذلك كله على الشركة ومساهميها .

بهذا قضى على مناوأة الموظفين المدنيين بمشروعاته الاصلاحية فاتجه ببصره الى العسكريين وكانت الشركة قد خفضت مرتباتهم تحقيقاً للاقتصاد الذي يرضي مساهميها، وتخفيفاً لضغط المصروفات . ولولا أن كليف كان في كلكتا في ذلك الحين لسار الأمر الى أكبر جانب من الخطورة، فهؤلاء كانوا أرباب السيف في بلاد لا يمكن أن تحكم بغير السيف . ودبر مئتا ضابط من الانجليز مؤامرة ضد الحكومة وصمم المتآمرون على الاستقالة من خدمة الجيش وضربوا لذلك موعداً يستقيلون فيه دفعة واحدة ظانين أن كليف وهو خير من يقدر أهميتهم لا يقبل أن يترك الجيش بغير ضباط . ولكن كليف لم يأبه بهذه الاستقالة فاعتمد على اخلاص من لم يشترك في تلك المؤامرة وأرسل الى قلعة سان جورج في طلب مدد جديد من الضباط، وعين في الوظائف التي خلت باستقالة أولئك الضباط مدنيين ممن يثق بهم . أما الجنود الانجليز منهم والهنود فقد ظلوا على اخلاصهم وولائهم لقائدهم الذي كان موضع اعجابهم وتقديرهم، وأمر بجمع الرؤوس المفكرة لتلك المؤامرة في الحال وشكل محكمة لمحاكمتهم وقررت المحكمة فصلهم من خدمة الجيش . أما الباقون فقد راعهم ما حل بزملائهم فالتمسوا سحب استقالاتهم، وأعلنوا توبتهم، فعفى كليف عن صغار الضباط . أما كبارهم فقد كان معهم صارماً، لا عن حقد ولا كراهية شخصية، ولكن لأنهم ارتكبوا جريمة العصيان .

السياسة الخارجية

الآن وقد تم له تطهير الادارة الحكومية مدنية كانت أم عسكرية، اتجه كليف ببصره الى السياسة الخارجية، فكان وصوله الى اقاليم البنغال بشيراً بالسلام . فان نواب أود كان قد جمع جيشاً على حدود مقاطعة بيهار، وكان هذا الجيش يضم بين صفوفه كثيراً من قبائل الافغان

والمراثا . وكان المحتمل أن تنضم اليه عناصر أخرى كثيرة من الهنود ضد الانجليز . فلما بلغ الأمير المهاجم نبأ وصول كليف الى كلكتا حتى عدل عن فكرة مهاجمة مقاطعة بيهار وطلب الصلح من الانجليز فقبل طلبه وكان كليف هو الذي أملى شروط هذا الصلح .

وكانت العلاقات بين الانجليز والحكام الوطنيين غامضة غير واضحة الأسس والمعالم ، وان كان الأولون أصحاب السلطان الحقيقي في اقليم البنغال . ولقد شاء كليف أن يكسب للانجليز صفة شرعية في حكم ذلك الاقليم فحصل من ذلك الامبراطور الضعيف والذي لم يكن له حول ولا قوة مقابل قليل من المال على تصريح يفوض فيه الانجليز في حكم وتحصيل ضرائب أقاليم البنغال وأوريسا والبهار تلك السلطات التي كان الانجليز يمارسونها فعلاً قبل صدور ذلك التصريح ولكن بقي هناك أمير أو على الأصح شبه أمير كان الانجليز يتخذونه لعبة في حكم اقليم البنغال ، وأراد كليف أن يمحو ذلك الشبح ولكنه عاد فأبقى عليه لانه رأى في بقاء تلك الصورة الهندية ما يفيده في سياسته مع تلك السلطات الأوربية الأخرى التي لا ترى غضاضة في النزول على رأي أمير وطني اعتادت احترامه من قبل عما يساعده هو على تحقيق أغراضه ، ولكنه عاد فخشى أن يصبح ذلك الأمير في يوم من الأيام ألعوبة في يد الآخرين فعدل عن الابقاء عليه .

العودة الاخيرة

وبعد أن قضى كليف في بلاد الهند ثمانية عشرة شهراً اضمحلت صحته وتبدد فيها جزء كبير من قوته أبحر عائداً الى وطنه المرة الأخيرة في يناير سنة ١٧٦٧ .

ولم يجد كليف من مواطنيه في أوبته هذه ما لقيه منهم في المرة الأولى من ترحيب وحفاوة ، بل لقي كل اهمال وانتقاد مرّ كآلم نفسه ، وحزّ في قلبه ، وحطم أعصابه ، حتى عجل به الى قبره . وكان أول من ناصبه العداء أولئك الذين كانوا يحقدون عليه في ادارة الشركة، وكانوا ذوي نفوذ قوي وسلطان متين ، وتطوّع للانضمام اليهم في حملتهم على الرجل فئة من الموتورين الذين طالما عاثوا في اقليم البنغال فساداً ، فاقتلعهم من أرضها اقتلاعاً، وطهر البلاد منهم تطهيراً . وزاد في قوة هذه الجبهة التي اتحدت للقضاء عليه استعانتهم بالصحف في التشهير به وإثارة الرأي العام عليه .

وكانت قد تكونت في انجلترا طبقة جديدة من أولئك الذين عادوا من الهند أثرياء ، بلغ بهم ثراؤهم مبلغ الأشراف في الترف والنعيم ، وإن لم يرفعهم الى مصافهم في الخلق والعادات ، فكانوا مثار بغض الناس وانتقادهم ، ومقتهم ، لأن هؤلاء الناس كانوا يعتقدون أن هذا المال لم يأت إليهم حلالاً طيباً ، ولا كان ثمرة كدّ أو عمل ، ولكنه كان مالاً مغتصباً من قوم سذّج بسطاء سلبهم العزيمة مساليم استغلوا استغلالاً قبيحاً واستنزفت أموالهم بل وأقواتهم،وجاء أولئك المغتصبون يبذرونه في غير أوجه التبذير ، وينثرونه حيثما اتفق ، لا يعنيهم إلا أن يبدو وجهاء ، وإلا أن يقول عنهم الناس إنهم عظماء ، ولكنهم لم يصلوا الى غاية من الغايتين بل أصبحوا موضع السخرية والانتقاد المر والتحقير في كل مكان حلوا به ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن الناس كانوا يخلون لهم نواديهم إذا هبطوا عليهم بها .

***

وكان الشعب يريد أن يفرج عما كان يشعر به من ضيق إزاء أولئك المغتصبين بعد إذ رأى القصور يشيدونها في وقت قصير ، وما كانت تلك القصور تحويه من وسائل الترف ، وما كانت تضمه من الخدم والأتباع ، فسرعان ما صدق ما جاء بتلك الصحف المأجورة من كليف،بل واعتبره المثل الحي لأولئك المغتصبين فصبّ عليه غضبه ونقمته .

ولو نجحت مشروعات كليف في اقليم البنغال لكان ذلك هنيئاً عند الرأي العام ، ولكن كان من سوء حظه أن أثر تلك النظم التي وضعها لحكم ذلك الاقليم أخذ يضعف شيئاً فشيئاً، وصيانته التي رمتها لإدارته تركت ظهريًّا ، وبعثت المساوىء التي أماتها من مرقدها وزاد في سوء الحال أنه حدث في صيف عام ١٧٧٠ أن كفت الأمطار عن الهطول ، وقلّ ماء نهر الجنجز وضحل ، ومات الزرع ، وجفّ الضرع ، وعمت المجاعة وادي ذلك النهر ، وانتشرت الأوبئة والأمراض ، ونشر الموت جناحيه على سكانه ، بل أدّى الأمر الى أن برزت السيدات المحجبات الناعمات من خدورهن وخرجنَ الى الطرقات حاملات أطفالهنّ كالزهور الذابلة ، يتسولنَ طالبات حفنة من الأرز لسد رمق أولئك الأطفال . وازدحمت شوارع كلكتا بالجثث حتى تعذر المرور فيها . ولم يكن ميسوراً للأحياء أن يحملوا تلك الجثث الى المقابر أو الى النهر الذي أصبح مليئاً بأمثالها لضعفهم ، وخورهم ، فتركت

الوحوش الضارية مهمة التهامها نهاراً . وراح ضحية تلك المجاعة ملايين من الهنود . وبلغت الأنباء لندن فتضاعفت اهتمام الناس بأخبار الهند ، وكان أشد الانجليز اهتماماً بها أولئك المساهمون الذين قلقوا على مصير أرباحهم ، وبدأت النفوس تحس الأسف والأسى والعطف على ذلك الشعب البائس المنكود ، وتولد من هذا الاحساس شعور بالغضب على أولئك الذين كانوا سبباً فيه . وأخذ الرأي العام يتهم موظفي الشركة الانجليزية الهندية بأنهم كانوا سبب تلك الكارثة لما كانوا يقترفونه من إكراه الهنود على بيع محصول الأرز رخيصاً لهم ، ثم شرائه منهم بثمن فال فوق طاقتهم، في وقت كانت الطبيعة قاسية عليهم فحرمتهم للأرز الذي عليه تتوقف حياتهم ، وان أولئك الموظفين في إتيانهم ذلك المنكر إنما استندوا الى حق أباحه لهم كليف فاستقر سخط الشعب على هذا الرجل.

ويدفع ماكولي عن كليف هذه التهمة بقوله إنه كان وقت حدوث المجاعة قد غادر بلاد الهند منذ سنين ، وإنه ليس بين أسباب هذه المجاعة سبب واحد يتعلق بالقوانين التي سنها وقت أن كان متولياً منصبه في تلك البلاد ، وان موظفي الشركة باشتغالهم بتجارة الأرز انما خالفوا تلك القاعدة التي منها لهم والتي عمل على توطيدها بكل ما أوتي من قوة وان كل ما أباحه له ، انما هو تجارة الملح ، ولكن الناس كانوا قد اقتنعوا بأن كليف هو المسئول عن كل تلك المساوىء وانه من الواجب أن يؤدي عنها حساباً .

الحساب

والى ذلك الحين لم يكن البرلمان قد أعار المسألة الهندية أي اهتمام ، فمنذ وفاة الملك جورج الثاني تعاقب على حكم بريطانيا حكومات ضعيفة قصيرة الأجل كانت كل منها تذهب ضحية رجال البلاط ، ووجدت في المتاعب الناشئة عن المؤامرات في قصر الملك والشغب في العاصمة والثورات في المستعمرات الاميركية ما شغلها عن العناية بمشكلة الهند فاذا ما تهيأ لها من الفراغ ما تستطيع أن تكرسه لدرس تلك المشكلة كان أثرها فيها ضعيفاً .

وأخيراً عم الشعور في سنة ١٧٧٢ بأنه أصبح على البرلمان ولجب الاهتمام بسياسة الهند . وكانت الحكومة اذ ذاك أقوى حكومة اضطلعت بأعباء الحكم منذ استقالة

الوزير بت في سنة ١٧٦١ ، إذ لم يعد يشغل الأذهان من السياسة الأوروبية ولا من المسائل الداخلية شاغل . وكانت أزمة الشركة الانجليزية الهندية قد بلغت ذروتها ، وكان الرأي العام قد ركز المسئولية كلها في كليف

وكان مركز الرجل دقيقاً وحرجاً إذ أصبح مكروهاً من الشعب كله ، ومكروهاً في ادارة الشركة . ومكروهاً من أولئك الموظفين الأثرياء الذين كسر شوكتهم ، ولم يكن كليف ضالعاً مع أي حزب من الأحزاب السياسية في بريطانيا حتى كان ذلك الحزب يتولى الدفاع عنه في البرلمان . وكان أعداؤه أقوياء قوتهم في كثرتهم وفي نفوذهم وكانوا لا يريدون أقل من أن يفقدوه سمعته وثروته ، وان يصلوا الى طرده من البرلمان ومصادرة أملاكه . ولم يبد على أولئك الناقين أن تحقيق هذه الغايات يشبع رغبتهم في الانتقام منه .

وكان دفاع كليف في البرلمان يشبه كثيراً خططه الحربية فقد كان وحيداً محاصراً يفوقه أعداؤه في كثرة عددهم وتفوقهم ، ورغم كل هذه الأخطار المحدقة به لم يشأ أن يقف موقف المدافع عن نفسه بل آثر الهجوم . ففي بدء المسائل الهندية في ٣٠ مارس سنة ١٧٧٢ وقف كليف وألقى خطاباً مطولاً منمقاً دفع فيه عن نفسه معظم التهم المنسوبة اليه . وكان بليغاً في خطابه هذا حتى أثر في مستمعيه أثراً طيباً ، إلا أنه لم يدافع إلا عن أعماله في تلك الفترة الأخيرة من ادارته فرع الشركة في البنغال التي بدأت من عام ١٧٦٤ . ونجح في هذا الدفاع حتى ان أعداءه وقد سقطت حجتهم في اتهامه عن هذه الفترة وجهوا جهودهم ونجحوا في استجوابه عن الفترة السابقة لها .

وكانت هذه الفترة مليئة بنقط ضعيفة يمكن مهاجمته منها ، واختيرت لجنة من أعضاء المجلس بالانتخاب لبحث قضية الهند ، وتولت هذه اللجنة فحص تاريخ تلك الثورة الكبرى التي أدت إلى اسقاط سراج الدولة وتولي ميرجافير مكانه . واستجوبت تلك اللجنة كليف استجواباً دقيقاً خالياً من أية مجاملة . وكان الرجل صحاحاً وصريحاً في اجاباته ، فاعترف بأنه خادع أوميشند وان ضميره لا يؤنبه لهذا الخداع ، بل وصرح بأنه إذا أتيحت له في المستقبل ظروف مشابهة فسيلجأ إلى نفس الطرق التي اتبعها مع ذلك الرجل كما أقر باستلامه مبالغ طائلة من ميرجافير ، ولكنه أنكر استغلاله في سبيل ذلك ما يخل بالشرف أو يتنافى مع

الأخلاق . وقال انه في ذلك لم يكن أنانيًا ولا جشعاً ووصف في أسلوب رائع مركزه الذي صار اليه عقب انتصاراته الكبيرة يملكه الأمراء العظام ، وتفتح تحت قدميه كنوز الذهب واللآلئ ويتنافس المموّلون الكبار في سبيل ارضائه، وأنهى حديثه قائلاً (إنه مدى الرئيس - إني لأعجب في لحظتي هذه من قناعتي وقتذاك) .

وطالت مناقشة الاستجواب حتى انتهت اللجنة من عملها وكان من السهل معرفة نتيجة هذا العمل ، فاعتبر كليف مذنباً ومقترفاً لآثام لا يمكن تبريرها ، إلا بخرق النظم المشروعة والقوانين الموضوعة . ولكن البرلمان لم ينكر على كليف ما كان يتصف به من صفات عالية ويتحلى به من فضائل جمة ، وما كان قد أداه من خدمات عائدة لمليكه من وطنه والشعب الهندي .

وما كان واجباً أن تجري محاكمة الناجحين من الرجال لأخطاء ارتكبوها ، أو هفوات آتوها تحت مؤثرات قوية لم يستطيعوا احتمالها كما تجري محاكمة المجرمين السادين ، بل كان يجب أن يقدرهم معاصروهم التقدير الذي ينالونه فيما بعد من الأجيال التالية . حقاً ان الاعمال السيئة سيئة على كل حال ، لا يجوز الباسها ثوب الحسن . ولكن يجب الموازنة بين ما قاموا به من أعمال ، وما آتوه من جرائم . فإذا رجحت كفة حسناتهم وجب أن يقتصر الجزاء على لومهم . فكم من حاكم عظيم في التاريخ لم يسلم من ارتكاب غلطة أو اثنتين فأي من أولئك جميعهم كان يسلم من مثل تلك المحاكمة لو أن لمواطنيهم من القوة التي تدينهم كالتي أدانت كليف ، إن أفضل محكمة لمثل هؤلاء دائماً هي محكمة التاريخ .

كانت هذه الآراء نصب أعين العقلاء والمعتدلين من جميع رجال الأحزاب ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبرئوه من اللوم كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوه تحت رحمة تلك الذئاب الآدمية من ذوي العقول الضعيفة والتفكير السقيم . الذين قدموه لهذه المحاكمة وكانوا متعطشين للقضاء عليه .

وفي خلال المحاكمة أنعم الملك على كليف بلقب (سير) ودعاه إلى التشرف بالمثول بين يديه . وفي تلك المقابلة أنعم عليه بلقب لورد . ولما قبل يدي الملك جورج الثالث أبدى جلالته عطفه العظيم عليه وأذن له بمقابلة خاصة تحدث اليه خلالها مدى نصف ساعة عن

السياحة الهندية . وكان تأثر جلالته عظيماً حينما حدثه القائد المتهم عن خدماته وعن الخطورة التي ناله نظيرها .

ثم عرضت القضية على مجلس العموم البريطاني ووقف موقف الاتهام بورجوين رئيس اللجنة التي تولت التحقيق ، وثورلو النائب العام . أما وودربرن مساعد النائب العام فقد وقف الى جانب كليف ودافع عنه دفاعاً بارعاً ومنطقياً ، ودفاع كليف عن نفسه وإن كان أقصر وأقل مهارة من دفاعه في بدء محاكمته إلا أنه كان أكثر حرارة وشدة ، ورجا سامعيه أن يذكروا أن حكمهم لن ينصب عليه وحده ، ولكنه سيشملهم أيضاً . وبعد أن ختم دفاعه — وانسحب من المجلس .

الحكم

وقرر أعضاء مجلس العموم

« إن ما تحرزه قوات الدولة ملك لهذه الدولة وحدها وأن احراز موظفي الدولة لتلك الممتلكات عمل غير قانوني ، وان الموظفين الانجليز في اقليم البنغال قد تعودوا مخالفة هذه القاعدة » .

وفي يوم تالٍ قرر أعضاء المجلس .

«أن كليف نال مبالغ طائلة من ميرجافير بحكم وظيفته كقائد لقوات البريطانية في الهند » .

وهنا وقف الأعضاء عن اتمام النص الى النتيجة المنطقية .

ولما أثيرت مسألة اساءة استعمال كليف سلطة وظيفته وضربه مثلاً سيئاً للموظفين ، دارت مناقشة حامية حول هذه النقطة ، ووقف وودبرن واقترح (أن اللورد كليف قد أدى في نفس الوقت لوطنه خدمات عظيمة وجليلة) . وبهذا انتهت المناقشة .

وهكذا اجتاز كليف تلك المحنة القاسية والأزمة القاتلة وساعده على هذا انه لم يكن رجلاً حزبيًّا تتحامل عليه الاحزاب الاخرى ، بل كان بطلاً وطنيًّا فساء المجلس كله في اتهامه مما كان مسوقاً اليه .

وأصبح كليف آمناً على ثروته وشرفه ، يحيط به أصدقاؤه وأقاربه ، إلا أنه كان يقاسي كثيراً من المتاعب الجسمية والعقلية . رخيمت على عقله سحب من الآلام والأحزان ولقد كان منذ شبابه المبكر فريسة الأفكار السود التي كانت تحبب اليه الموت، حتى لقد حاول الانتحار مرتين حينما كان كاتباً في خدمة الشركة في مدراس . ثم حالت كثرة ما قام به من أعمال وما نال من نجاح دون استمرار تلك الأفكار السود . ففي الهند شغلته الأعمال العظيمة التي كان مضطلعاً بها، وفي انجلترا صرفه عنها ثراؤه وما ناله من رتب وتقدير فبدأ يرضى عن نفسه ويعد نفسه سعيداً . أما الآن فقد خلا من كل خاطر يشغله، أو أمل يرجيه، وأصبح كالريشة في مهب الريح ، لا سيما بعد أن نال ما نال من عنت أصدقائه وإهانة اللجنة التي تولت التحقيق معه ، وذلك الاتهام الذي وجهه إليه مجلس العموم وإن كان في ثوب مقبول ، وما كان يشعر به من أن مواطنيه يعدونه قاسياً وخائناً وظالماً . كل هذه الاعتبارات تجمعت في ذهن كليف ، وسببت له القلق والآلام وضيق الخلق ...

وحينما كان في المناطق الحارة أصابته عدة أمراض متنابة والتمس شفاءها فيما أشار عليه به المشيرون بتعاطي الأفيون ، حتى أصبح هذا التعاطي عادة وأصبح هو أسيراً لها . وقد كان يظل ساكناً ساعات طويلة تحت تأثير المخدر . ثم يصحو فتصحو معه مميزاته العسكرية والسياسية فيناقش أية مسألة تعرض عليه بجلاء وحكمة ثم يعود الى إغفاءه واطراقه الحزين .

وزادت حدة المناقشات بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية حتى دعى الأمر الى امتشاق السيف ، وفكرت الحكومة في الانتفاع بمواهب كليف لو كان قد ظل على ما كان عليه يوم رفع حصار « باتنا » . وعندما قضى على الجيش والبحرية الهولندية عند مصب نهر الجنجز . ولكن كليف لم يكن عند ظن أولئك الوزراء به ، فان عقله الجبار كان قد أجهدته المتاعب والآلام، حتى اذا جاء اليوم الثامن والعشرون من شهر نوفمبر سنة ١٧٧٤ انتحر كليف وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره .

وهكذا انتهت حياة مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند بعد ان ترك صفحة رائعة في سجل الخالدين .

والمعرب

١ — فتاة الجيشا : صورة جميلة ناعمة للحياة الداخلية في بلاد اليابان محلاة بالصور .
٢ — زينيدا وقصص أخرى : من ألطف ما كتب أنطون تشيكوف.
٣ — غرام الأميرال : صورة حية لأروع الوقائع الغرامية في التاريخ محلاة بالصور .
٤ — الجلد المسحور : قصة رائعة تحليلية لأونوريه دي بلزاك محلاة بالصور .
٥ — بائع الخضر وقصص أخرى : مجموعة من خير ما كتب أناتول فرانس .
٦ — دون جوان وقصص أخرى : « « « « « أونوريه دي بلزاك .
٧ — روائع الأدب الألماني : لأشهر كتاب ألمانيا
٨ — عدا امرأة وقصص أخرى : مؤلفة
٩ — باقة البنفسج : مختارات من أشهر المآسي